

الفجر

تأليف

ديزمووند ستيوارت

ترجمة

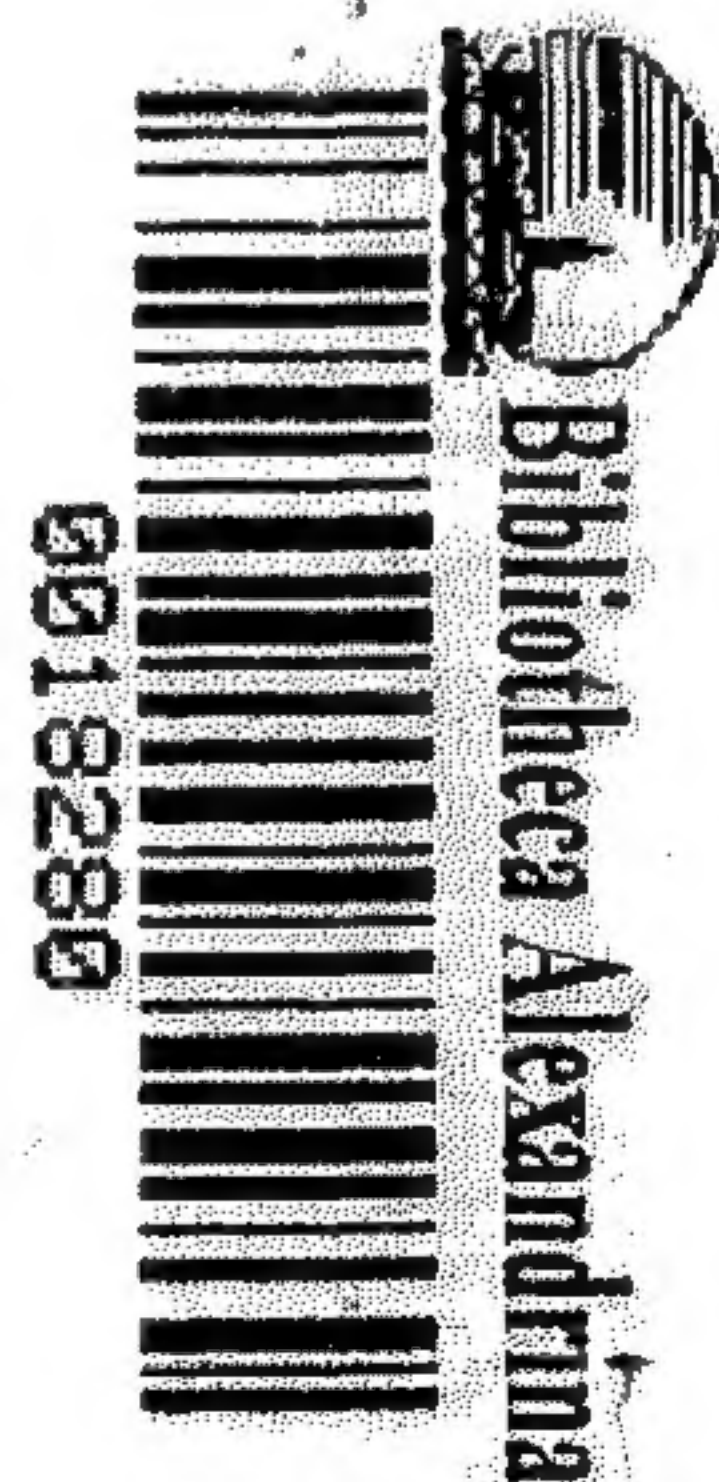
يحيى حقي

تقديم

د. جمال حمدان



دار المعارف



القصاصات

تأليف
ديزموند سينيوارث

ترجمة TOTAL
يحيى حقي
تقديم
د. جمال حمدان

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	٢٠٢٤
رقم التسجيل	١٧٠٤

دار المعارف

هذا الكتاب

لم يستطع معول التنظيم الغشوم، ولا أكّداس
العمارات الشاهقة المسلحة بالأسمنت، ولا غوائل
الشوارع الطارئة المفروشة بالأسفلت، ولا أحياء حجارة
الدومينو تنبت كالفطر وتتضخم كالسرطان، شقًا إلى
القلب كالطعنة النجلاء أو لفاً على الجوانب، غلافًا فوق
غلاف، ولا ظل قبعة قمیئة مستعارة وضعتها على الرأس
يد عمياء متلهفة على التقليد - لم يستطع شيء من هذا
كله أن يمس طابعها الأصیل وجلالها المكنون - هبة لها
من حضارة الشرق، ونفحة من سماته، كلاهما خارج عن
متناول الزمن وعواديّه، إن كنت تأنس لجمالها حين
يطوف به خيالك إذ هو بالأمس في قصره، في عز مجده
فإنك أشد أنسًا به وأنت تزوره اليوم فتراه منكمشًا

منزويًا في صومعته. بقى من الثمرة سر الحياة والديمومة في
نواتها الصلبة، هيهات أن تتحطم، إنها صلابة الدفاع
المستमित في آخر خندق، وهذا التجميل بالستر إذ الود
فاتر ومنسى أشد نبلاً من أريحيتها وإغداقها إذ هي
مأخوذة بالأحضان والدنيا مقبلة..

لم تستطع الأسطح المتعالية يوماً بعد يوم أن تحجب
مآذنها العديدة، باقية هي ناجية بشممها وشموخها، ولا
الضجة الهائلة التي اندلقت عليها أن تخنق ضراعات هذه
المآذن، يخشع لها القلب وتطرب الأذن عند مولد كل
فجر..

جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ، آية في فن
العمارة، في ذروة الصدق، تصون داخلها أمثلة رائعة
للجمال، تحكى في صمت قصة آلاف من الفنانين بناة
الحضارة عملوا في ورع وهم متطهرون ثم مضوا لا يعرف
أسماءهم أحد، ولا يذكرهم أحد، حق لهم أن يتضاعف
ثوابهم، جزاؤهم عند رب لهم عليم..

وأسواق لا تزال متشبثة بإمكانتها، كأن لها جذورًا

ضاربة إلى الأعماق، هيهات أن تنقص أو تذوى،
شاخت ولكنها لا تزال متشعة بأطياف من وسامة شبابها
وزينة عرسها. تغير عن يمين، عن يسار، من حول كائن
واحد لا يتغير، ابن البلد، بكرمه ومروءته، بلطفه وظرفه،
ببشاشته وخفة دمه، بنكاته وقفشاته، بذكائه وحضور
بديته، هو الذي رقق العامية على لسانه وأثراها بأبداع
مجاز واستعارة، ساخر وحكيم، تحسبه لطيبته غراً ولكنه
«حويط»، يلقط العملة الصحيحة ولو ممسوخة من بين
عمله كثيرة زائفة ولو براقعة، لا ينطلي عليه الكذب
والنفاق ودموع التماسيح..

هذه هي القاهرة، إن كنت لا تعرفها يا أخى
فاعرفها، إذن ستحبها، ستعشقها، ستنضم إلى زمرة
عشاق لها كثيرين، هاموا بها ولاء والتحاماً، منذ أن ألقى
في نهر النيل عقدها ما تخلف عن ولادتهم من مشيمة
مصرورة في منديل، عشق بالغريزة، بالإرث، بالقسمة
والنصيب والحمد لقد لا تعلل تصاريقه..

لم أعرف عيداً قومياً تمثل لى فيه لقاء موعود مع

حبيب كالعيد الألفى للقاهرة، بلدى الذى ولدت فيه،
ونشأت فى أحيائه العتيقة الشعبية، تحس أعصابى قبل
عقلي بمقدم العيد، وددت أن أشارك أهلى فى الاحتفال به
فاخترت أن أترجم لهم عن الانجليزية كتاباً إن صدر
سنة ١٩٦٥ فهو لا يزال - بقدر علمى - من أحدث
الكتب التى ألفت عن القاهرة. كتبه ديزموند ستيوارت
الذى يتكلم العربية وتعرفه أوساط الصحافة عندنا لأنه
عمل بها وأقام بيننا طويلاً، وله فى بلده إنتاج أدبى، متعدد
متنوع. اخترت كتابه لأنه صغير الحجم، ملموم، فصوله
محددة أجمل تحديد، موصولة ببراعة، أرجو أن تلحظ كيف
كان أول تناوله للقاهرة من ناحية طابعها الصحراوى
لأنها - بل الوادى كله - فى حضن الصحراء، ثم من
ناحية طابعها النهري، ثم يمضى يساير التاريخ فى فصول
يأخذ فيها اللاحق من السابق..

وأحب أن أنبهك أن هذا الكتاب هو كلام أجنبى،
مقصود به خدمة زائر أجنبى يقدم إلى بلادنا لأول مرة،
فالحديث له لا للمصريين. لا تضق ذرعاً إذن بمعلومات

وردت به هي غير مجهولة لك، بل لعلك تجد متعة في مقارنة دلالتها عندك بدلالاتها عند المؤلف، لذلك فإنه يرسم لهذا الزائر طريقه إلى المساجد والكنائس، ويقيس له زمن المشوار مشياً بالساعة والدقيقة، ويحدد له أسعار فنجان القهوة وقطار حلوان ودخول المتاحف، ولكنه يقتصد في هذه الإرشادات العملية ويتخذ طريقاً وسطاً، فلا يتسم بهذا الجفاف العلمي الذي تجده في مؤلفات فقهاء الآثار، ووقوفهم الطويل أمام الأحجار والعقود والمقرنصات، (وضع الأجانب مصطلحات العمارة ونحن لا نزال في حيرة لا نستقر على مصطلح نستخدمه في التأليف أو الترجمة) ولا يتسم الكتاب كذلك بالجفاف التجاري الذي تجده في كتب دلالة السياح، ولم يقصد المؤلف أن يقدم لنا في صورة مختصرة معلومات كثيرة استقاها من المراجع، وإنما أراد أن يحكى بأسلوب أدبي للزائر الأجنبي (وقد افترض فيه هيامه بالفن وجوانب الطرافة في الحى والجماد) ما أحس به هو ذاته داخل نفسه وهو يجوب أحياء القاهرة يعرض أحاسيسه على لوحة من الحقائق التاريخية التي استمدتها من مراجعها

الوثيقة، إنه رأى الألوان وأطراف الألوان وشم الروائح
وسمع الهدير والصمت واستقرأ الوجوه والأسطح
والجدران وأكوام القمامة، كم كنت أود أن يكتب كل
أديب كبير عندنا عن القاهرة ويصف لنا وقعها على
نفسه كما فعل هذا الأجنبي، إنك لا تملك إلا أن تحس أنه
يجب القاهرة حباً كبيراً، ولكن بقيت مع ذلك في نفسي
من الكتاب أشياء تلمت لها، أبقيتها ليكون النص
العربي مطابقاً للنص الانجليزي تمام المطابقة، وكان من
الواجب أن لا تترك بغير تعليق يتولاه من هو أعلم مني
 بالتاريخ، ودعني أعترف لك أنني ما تناولت كتاباً لأجنبي
 يصف فيه بلدي فأراه يلقي عليه نظرة جديدة تعتمد على
ثقافة شاملة وتحاول النفوذ بالجلس المرهف إلى السر من
تحت السطح إلا تملكني شيء من الحسرة والغيرة، قد
يصدني أحيانا عن متابعة الكتاب لئلا أحكم بنفسي على
خيابتي وقصور بصري، وهذه هي حيلة العاجز المعتذر مع
ذلك بأن نيته في النهوض صادقة، والنية بلا عمل
كالبندية بلا رصاصة، فأبناء بلدي هم عندى أولى الناس
يفهم بلدي وخدمته، لن أتخوف - شأني مع الأجانب -

شبهة التجنى عن سوء فهم، أحياناً عن سوء قصد، ثم
أعود للكتاب وأنا أقول إن الأجنبى أقدر من ابن البلد
على الرؤية لأنه ليس مثله ضحية الألفة المستنزفة لجدة
الانتباه والعجب، المفضية إلى عناق تموت فيه اللهفة وإن
بقى الحب، وأشهد أن ديزموند ستيورات أرانى لأول مرة
أشياء كان يقع عليها بصرى من قبل ولا أنتبه لها..

ونحن الآن نحتفل بالعيد الألفى للقاهرة، الأم التي
نحلف بجماها وتنعم بحضنها. سنقرأ ولا ريب أعمالاً
بديعة تتحدث عن التاريخ والآثار والعمارة والخطط
وتراجم الأغنياء، ولكن الذى أبحث عنه هو كتاب
يتحدث عن القاهرة حديث عاشق عن عشيقته، حديث
إنسان حى عن إنسان حى ينفرد بلامح ثابتة وإن تقلبت
ثيابه. لن يخط هذا الكتاب قلم مؤرخ أو عالم آثار، بل
قلم أديب ابن بلد، أو قل قلم شاعر كتب بالنثر،
والعجيب أننى وجدت ضالتي لا عند أديب أو شاعر بل
عند صديقى الأستاذ عبدالفتاح عيد، نابغة فن التصوير
الفوتوغرافى فى بلدنا، فإن لوحاته عن القاهرة شعر

ونغم، وحس مرهف، وفيض حب كامن في أعماق القلب.
وكم كنت أتمنى أن يصحب الاحتفال بذل جهود كبيرة
للتعريف بالقاهرة والحض على حبها، أتمنى أن تنظم لنا
جولات صباحية أيام العطلة مشياً على الأقدام، بالمجان،
في صحبة عالم آثار لا دليل سياح، يشرح ويفسر. جهود
أخرى للمناداة بصيانة الآثار الإسلامية في ذاتها وفي نوع
الجيرة من حولها، وإثارة الاهتمام بفن العمارة، فمن
العار أن لا تصدر مجلة للعمارة في القاهرة أم العمارة،
والمطلب من هذا كله هو حث المماريين عندنا على
الوصول إلى طراز يلائم طبعنا وجونا، ويستمد من تراثنا،
فما أشد ابتلاءنا بعمارات مستوردة لا تناسبنا، نذل بها
وتذل هي بالغرابة عن مواطنها، لا تنفعنا كما نفعت أهلها،
فالشقاء مزدوج متبادل..

يحيى حقى

مقدمة

القاهرة الكبرى دراسة في جغرافية المدن

بقلم: د. جمال حمدان

إذا عدت المدن العواصم العظمى في العالم، فالقاهرة واردة بالتأكيد في العشرة الأولى أو العشرة ونيف. وهي المدينة الأولى - المطلقة - في قطاع هائل متصل من العالم القديم قد يجاوز ثلثه مساحة ويتعدى آفاق القارة الأفريقية إلى تخوم الألب ووسط آسيا. بل إن بضعة لا يستهان بها من الدول الأفريقية لتقل سكاناً - سكان كل منها أقصد - عن حجم القاهرة كثيراً أو قليلاً، وذلك حتى دون أن نذكر أن القاهرة تستأثر وحدها بنحو نصف

سكان العواصم الأفريقية الخمسين مجتمعة !

وإن حصرت العواصم المخضومة العريقة في الدنيا،
فلعل القاهرة (وأسلافها أو بأسلافها) هي أم المدن جميعاً،
وعلى أية حال فقليلة جداً هي المدن التي يمكن - كدمشق
- أن تنافسها في هذه الصدارة. وحتى نتمثل هذا البعد
الزمني السحيق بشيء من التجسيد الذهني، يكفي أن
نقول إنه قد يعادل مجموع تاريخ حفنة ليست بالقليلة من
عواصم غرب أوربا، وقد يرجح كل تاريخ عواصم العالم
الجديد مجتمعة..

أما إذا اعتبرنا الوزن الحضاري والنفوذ السياسي
والوقع والإشعاع القومي والفكري، فما من عاصمة فيها
نظن لها في دولتها ما للقاهرة من ثقل ومركزية طاغية
وسيطرة أو توجيه، بل وإلى حد الإفراط ربما. ولقد
يختلف علماء المدن حول السؤال القديم: هل العواصم
هي أكبر وخير مما يمثل ويحسم روح بلدها وكيانه، وذلك
باعتبارها بوتقة تنصهر فيها عناصره وأقاليمه، أم هي
بطبيعتها العالمية الكوزموبوليتانية بالضرورة وبما تضم من

جاليات وأجناس أجنبية وبما تتطلع دأئاً إلى الخارج تؤلف بينها طبقة « كاستية » خاصة من المدن في العالم أشبه ببعضها البعض منها بصميم أقطارها المحلية ؟ مهما اختلف الرد، فلا خوف في حالة القاهرة، ولا يمكن له أن يقوم، فها هنا عاصمة تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز إلى جوهر كيانه حضارياً ومادياً، جغرافياً وتاريخياً، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى.

هذه إذن هي القاهرة: تاريخ مفعم بمحمد أو محفوظ كل حجر فيها مشبع بعبق الماضي وعرقه، كل شبر منها يحمل بصمات الإنسان. إنها - كبيت جماعى كبير، وكمنطقة مبنية لا مثيل لكتلتها في مصر - عمل فنى من مقياس ضخمة مهندسه وساكنه هو المصرى، وهى بهذا أكثر أو أكثر رقة من اللاندسكيپ الحضارى في مصر « تبشيراً » وحلاً للطابع البشرى، وبنفس الدرجة أبعدها عن ملامح الطبيعة الخام واللاندسكيپ الطبيعى الغفل للوادی..

ورغم هذا كله، فإن القاهرة من أسف من أقل

العواصم حظاً في دراسات المدن العلمية الحديثة. كثيرة هي لا شك الكتابات الأكاديمية والشعبية المتاحة عن هذه المدينة الخالدة، ولكن الغالب عليها إما التاريخ عمومًا أو تاريخ العمران أو الآثار خصوصًا. وربما أضفنا بعض كتابات «هواة المدن» من الرحالة أو الأدباء أو الصحفيين، لاسيما منهم الأجانب.

أما دراسة المدينة ككل حتى متعضون فوار محدد السمات والقسمات، كمجتمع مركب متلاطم مضطرب يضطرب في وعاء جغرافي واضح المعالم بارز التضاريس، أما دراسات علم اجتماع المدن وجغرافية المدن بوجه خاص، أما مورفولوجية القاهرة الكبرى، تركيبها الوظيفي، أيكولوجيتها البشرية، نموها السكاني وزحفها العمراني وضوابطه، هيدرولوجية النقل ومشاكله الخائفة المختنقة، الطبوغرافيا الاجتماعية والتوزيع الجغرافي للطبقات والحرف، إقليم المدينة وحدوده، التخطيط المستقبلي ومؤثراته.. الخ، أما هذا كله فما زال فراغًا مقلقًا وأرضًا بكرًا (ولا نقول مجهولة) منذ ظهرت أول

وآخر محاولة جادة في هذا الميدان الضخم، ونعني بها دراسة كليرجية^(١) في الثلاثينات، والتي دفع بها نمو العاصمة المدى الانفجارى الحديث إلى زوايا المكتبة التاريخية بدرجة أو بأخرى.

والكتاب الحالى الذى نقدم له بين يدي القارئ نموذج شيق وطريف بل وبارع لكتابات المثقفين من الصحفيين الرحالة الأجانب هواة المدن الذين يحاولون بذكاء أن يستقروا روح أمة وشخصية بلد من خلال عاصمتها وعن طريق التجربة الحية والخبرة الشخصية، مدعمة بقراءة واسعة في التاريخ والتراث تترامى من الفولكلور إلى اللغات، ومن الدين إلى الأدب، ومن الجغرافيا والاجتماع إلى العمارة والهندسة.. إلخ.

ولقد يختلف القارئ مع بعض الأحكام والنظرات التى أوردها المؤلف كأجنبى عابر، فهذا أمر لا مفر منه وتلك عمومًا نقطة ضعف الكاتب الأجنبى أيًا كان ومهما

(١) Marcel Clerget, Le Caire, Etude de Géographie Urbaine et d'Histoire Economique, Le Caire, 1934, (2 vols.).

حاول، ولكن من المحقق - بالمقابل - أننا سنلمس لمسًا
نقطة القوة وميزة العين الأجنبية النافذة الثاقبة ترى
وتلتقط من اللمحات الشفافة واللفتات الدقيقة اللماحة
ما قد أخفى الألف عن عين صاحب الشأن نفسه حتى
غاب عنه أو كاد.

الكتاب إذن - في كلمة - قصة رحلة travelogue
رحلة في الزمان والمكان، طولها مدينة وعرضها زيارة.
ولكنها قصة دسمة ثرية مع ذلك، وممتعة وجذابة إلى ذلك.
إنه سياحة بلا دليل، وتاريخ بلا أرقام، وجغرافية
بلا خرائط، وهندسة وعمارة بلا لوحات، واجتماع بلا
نظريات، وأيضًا سياسة بلا شعارات: قل باختصار: علم
وثقافة بلا دموع، كما يعبر الأوروبيون.

نعم، بلا دموع. ومن هنا بالدقة تبدأ مهمة هذه
المقدمة. ففي تصورنا أن مثلها - لا سيما ونحن نحتفل
بالعيد الألفى للقاهرة - ينبغي أن يوفر الأساس العلمي
الصلب، والقاعدة المادية والفيزيائية لهذا البناء المدني
الشامخ المعقد والمتعدد الأبعاد. فلعل من المفيد للقاهري

ابن العاصمة، وللمصرى أبى العاصمة، فضلاً عن أخيها العربى، أن يكون لنفسه خريطة ذهنية مبسطة تلم شتات مدينته المترامية وأطرافها فى صورة اختزالية متكاملة دالة وهادفة، تؤكد الخطوط العريضة فى هيكلها وتكمل خبرته اليومية ومعايشته الجارية لأحيائها وحياتها.

لتكن هذه، إذن وبعبارة أخرى، مقدمة مبسطة فى جغرافية المدينة، تحلل الأساس الطبيعى الذى تقوم عليه العاصمة موقعاً وموضعاً، وتتبع نموها العمرانى فى ظاهرها وظهيرها، وكذلك خططها الهندسية وكتلتها المبنية، ثم تحدد وظائفها وتوزع طبقاتها الاجتماعية وأقاليمها التركيبية، وقد تعالج أهم مشاكلها واختناقاتها. وكثير من هذه -بالفعل- جوانب عرض لها الكتاب بصورة أو بأخرى.

أما عن الترجمة والتعريب فلسنا بحاجة -أحسب- إلى الوقوف عندها طويلاً أو قصيراً، وهى من قلم واحد من سادة الأدب والفكر وعمالقة المعدودين فى مصر، ذى سلطان عظيم على لغتى الأصل والنقل معاً بل وعلى

الثقافتين العربية والغربية على حد سواء وعلى أرفع المستويات. ثم إن أمر هذه الترجمة متروك للقارئ نفسه، فهي مكافأته الحقيقية - كما أثق - في هذه الرحلة الشائقة. وحسبى هنا أن أشهد مخلصاً أنني قطعت شوطاً كبيراً في مطالعة النص وأنا أظنه تأليفاً ودون أن أفطن إلى أنه عمل مترجم، وهذه ولا شك أكبر شهادة لأي ترجمة ومترجم. فأنت هنا تشعر أنك تقرأ لصاحب «القنديل» بأسلوبه، بجمله التأثيرية ووقفاته ولزماته، بكل خصائصه ونكهته، كل أولئك في أمانة وولاء للنص الأجنبي هما أول ما يطلب في ترجمة. وهناك كما يقال من إذا ألفوا ترجموا، وإذا ترجموا ألفوا، ولكنك هنا أبعد ما تكون عن هذا. على العكس تماماً، ستجد التزاماً أميناً بالنص حريصاً على روح المؤلف، ولكن دون أن ترتطم قط بتلك التراكيب الفجة أو التشويهات والاهتزازات التي تسقط فيها عبودية الحرفية.

الموقع والموضع

والموقع هو ذلك الإطار الجغرافي الكبير الذى تحدده العلاقات المكانية العريضة والقيم الإقليمية النسبية التى تتعدى كثيرًا جدًا الحدود المحلية للمدينة وقد تصل إلى أبعاد قارية برمتها. لذا فهو فكرة متغيرة على العصور، وبالتالي فقليل من المواقع ما يعد خالدًا فى التاريخ. أما الموضع فهو بكل بساطة الرقعة المحلية التى تقوم عليها الكتلة المبنية مباشرة، وهو لا يتغير إلا بزوال جسم المدينة ذاته وانتقالها إلى رقعة أخرى.

والقاهرة تحتل موقعًا فريدًا فى مصر وخارج مصر. ففى إطار التقاء الدلتا بالصعيد، فى عقدة الوادى وصرته، موقع حتمى خالد ظلت العواصم تدور فيه، قد تنتقل من موضع إلى موضع، ولكنها لا تخرج عنه إلا فى فترات عابرة - وربما قيل شاذة - فى التاريخ القومى، مثله فى هذا مثل خاصرة الرافدين فى العراق حيث تتابعت العواصم ابتداء من بابل إلى قطيسفون إلى بغداد، ومثل

تونس على رأس البلد وعلى خاصرة البحر المتوسط حيث تناسلت أو تناسخت قرطاجنه وتنس وتونس. فموقع القاهرة إذن هو خاصرة مصر، مجمع الوادى والفرعين، وملتقى الصحراوين، كأنما القطر كله على ميعاد فيه. ولذا تحركت فيه العاصمة عبر العصور ولكن دون أن تخرج عن مجاله المغناطيسى. فمن منف الفرعونية (فى منطقة البدرشين حالياً) إلى أون أو هليوبوليس (عين شمس ومصر الجديدة الآن) إلى بابلون (مصر القديمة) إلى الفسطاط العربية ثم إلى العسكر والقطائع الطولونية حتى القاهرة الفاطمية - كل أولئك حلقات متباينة فى سلسلة جغرافية أو نسل أقليمى واحد أساساً.

وإذا كانت العاصمة قد عرفت اطاراً إقليمياً مختلفاً ومتطوحاً أكثر من مرة، كطيبة (الأقصر) فى الجنوب الأقصى، وأفاريس قاعدة الهكسوس فى شرق الدلتا، والاسكندرية البطلمية الرومانية، فإنما كانت الأولى فى المرحلة التكوينية للدولة المصرية، وكانت الثانية انحرافاً غزو أجنبى بحث، بينما أتت الثالثة انحرافاً استعمارية

لامبراطورية بحرية على الجانب الآخر من المتوسط، وظلت حيناً أشبه بجزيرة غريبة من الأرخبيل اليوناني نقلت وألصقت بالساحل المصري سياسياً وبشرياً.

والانتقال من منف إلى الفسطاط يمثل نقطة انتقال هامة في التوجيه الطبيعي والسياسي: فهو انتقال من الضفة الغربية إلى الشرقية، ويشير إلى أن منف، التي كانت سهلة الاتصال بالدلتا مثلما كانت أسهل اتصالاً بالصعيد (حيث المعمور الزراعي يقع في سواده الأعظم على ضفته الغربية)، كانت عمومًا أدنى إلى التوجيه المصري المحلي..

أما الفسطاط فكانت أكثر اتفاقاً مع توجيه الفتح العربي الجديد، الذي هو نحو الخارج أولاً وبرى الطابع ثانياً، وذلك بعد أن أصر الخليفة عمر على قائده عمرو «ألا يجعل بينه وبين المسلمين ماء»، فاختار موضع الفسطاط بدلاً من الاسكندرية ومن الجزيرة كما كان البعض قد اقترح عليه. ومن هنا أصبح الفسطاط في موضع أشبه بالكوفة والبصرة في العراق، كلها ترسم

مروحة حول رأس الجزيرة العربية، وكل منها يقع على نهاية واد صحراوي يخرج منها أو قريبها وينتهى إلى ماء نهر كبير ولكن أساساً دون أن تعبره.

من هناك أيضاً بدأت الجزيرة تلعب دور رأس الجسر أمام الفسطاط - لاحظ اشتقاق الاسم من الاجتياز والمجاز - أى همزة الوصل بين العاصمة والصعيد، وورثت بذلك ظل منف - الظل فقط - ولذا ظلت دائماً وحتى بدايات قرننا هذا حلة صغيرة مجمدة. وفي هذا الدور كانت جزيرة الروضة أشبه بنصف جسر طبيعي بين الجزيرة والفسطاط، يكمله عادة نصف آخر معلق من السفن الثابتة..

ومن الضروري هنا أن نذكر أن موضع الفسطاط فيها هو اليوم نهاية مجمع القاهرة المدنى جنوباً إنما يمثل ما كان فى حينه أضيق - وأسهل - عبور للنهر بين ضفتيه، فى عصر كان النهر يمثل عقبة مواصلات لا يستهان بها. ذلك أن شاطئ النيل الشرقى لم يكن يتبع حده الحالى، بل كان يبدأ من قرب مكان الفسطاط ثم ينحرف بشدة نحو

الشمال الشرقى إلى قلب القاهرة الحالى فى الشمال،
بحيث كان الثلث أو المثلثات العربى من الرقعة الحالية
تقريباً ماء وجزءاً من مجرى النيل.

ومعنى هذا أيضاً أن الضفة الشرقية لم تكن بمثل منها
يمثل إضافة لليابس تكونت بالتدريج عبر القرون
اتساعها الحالى، بل كانت أقل مساحة، والمثلث الغربى
نتيجة لإرسابات النهر الطمئية، بينما أخذ النهر نفسه
يتراجع نحو الغرب بانتظام، وهذه هى الحركة التاريخية
التي تعرف بهجرة مجرى النيل نحو الغرب. أما تلك
الأرض التي انحسر عنها النهر فلم تكن ناضجة
فيزيوجرافياً على الفور، وإنما ظلت مواطئ رطبة تملؤها
البحيرات والخلجان والمضاحل ولا تصلح للسكنى
والتعمير إلا بعد قرون من الإرساب والنضج والصلابة.
فمثلاً لم تظهر منطقة الأزبكية كأرض صلبة إلا منذ
الفاطمية، ومنطقة باب اللوق إلا منذ الأيوبية.

وعند هذا الحد، يمكننا أن نكون تصويراً عريضاً لموضع
منطقة القاهرة عامة. فالضفة الشرقية تحدها سلاسل

تلال تقترب من النهر في الجنوب وتنفرج بعيداً عنه كلما اتجهنا شمالاً هي جبل المقطم الذي ينتهى في الشمال بالجبل الأحمر قرب العباسية. وحواف هذه السلسلة تتراوح بين ١٠٠ متر في الجنوب، ٨٠ مترًا في الشمال. وتخرج من السلسلة عدة بروزات ناتئة نحو الغرب كتلول ثانوية هي من الجنوب إلى الشمال تلول عين الصيرة ثم زينهم فقطع المرأة.

فإذا عرفنا أن شاطئ النيل هنا يقع عمومًا على منسوب نحو ٢٠ مترًا، أدركنا أن الضفة الشرقية، التي تتسع كالمروحة شمالاً وتضيق جنوبًا، ينحدر سطحها كلما اتجهنا من الصحراء إلى النهر، أى أن القطاع الشرقى منها مرتفع والغربى منخفض (كلمة بولاق مثلاً أصلها بلاق وتعنى لغة «الأرض المنخفضة»، بمثل ما أن الشرقى أقدم جدا في تكونه بينما الغربى أحدث ويزداد حداثة كلما اقتربنا من النهر.

وعلى العكس من هذا الضفة الغربية، فليس ثمة خائط تلى، بل تمتد الأرض الزراعية حتى هامش

الصحراء، والأرض تنحدر لا نحو النهر بل نحو الصحراء ولكنه انحدار طفيف جدا لا يقدر إلا بالبوصات حيث يصل في الضفة الشرقية إلى عشرات الأمتار، إلا أنه مع ذلك واضح للعيان كما يمكن للناظر أن يرى من فوق كوبرى الزمالك تجاه ميت عقبة.

وترتبا على ذلك كله، فإن أرض الضفة الغربية سهلية منبسطة بعامة وكلها كانت أرضا زراعية، بينما الشرقية منحدرة تصلها نهايات الأودية الصحراوية والتلية التى تعرف السيول الشتوية المفاجئة والتى يعرفها أكثر سكان الأحياء الشرقية كالعباسية والجمالية حين تتحول شوارعهم المائلة إلى خنادق مائية مؤقتة. وبينما تمتد شوارع الضفة الغربية (باستثناء طريق الهرم) كطرق مسطحة موحدة المستوى، ينفرد القطاع الشرقى من الضفة الشرقية بظاهرة الشوارع السلمية حيث تتحول إلى درج حقيقى يذكرنا بشوارع المدن الجبلية فى أوربا وبخاصة حوض البحر المتوسط.

أخيراً وعموماً، كيف تبدو قيمة موضع القاهرة إذا وضعت في الميزان؟ ثمة مزايا لا شك واضحة. فالضفة الشرقية محمية من ثلاث جهات بالنهر والتل، وهي مفتوحة من الشمال فقط. ثم إن وجود التلال الشرقية يوفر للمدينة مادة بناء ثمينة من الحجر مثلما يوفر لها النهر خامة الطوب. وارتفاع القطاع الشرقي يعوض عند البعد عن النهر بجفاف الهواء الصحى وحركته النشطة المنشطة، في حين يتمتع القطاع الغربى بجبهة مائية منعشة ومرطبة. وأخيراً فإن كثرة الجزر كثرة غير عادية في المنطقة - كنتيجة لتغير مستوى الارساب فجأة مع الانتقال من الوادى الضيق إلى الدلتا الواسعة - هذه الكثرة توفر قواعد هامة لعبور النهر ولنمو المدينة.

نمو القاهرة بين ضوابطه ومحاوره

في هذا الإطار الطبيعى الملائم إذن نستطيع أن نتتبع حركة المدينة التاريخية منذ العصر العربى. حين نشأت

الفسطاط في أقصى الجنوب، قرب النهر والتل معًا، فإنما كانت مدينة حربية أساسًا، تنشُد موضع حماية معلقا على التل ومحصنًا بالطبيعة. فكانت في النتيجة مدينة أكروبوليس، أى مدينة قمة تل. (ومن الطريف، وهو) بالتأكيد أكثر من صدفة، ان ديزموند ستيوارت مؤلف هذا الكتاب يذهب إلى حد تشبيه جامع ابن طولون على جبله بالبارثينون على الأكروبول في أثينا!) وحين بنيت العسكر إلى الشمال الشرقى منها، ثم القطائع على جبل يشكر في نفس الاتجاه، وأخيرًا القاهرة المعزية التى بدأت كمدينة ملكية محرمة، فإنها لم تغير تلك الصفة الأكروبولية العسكرية أساسًا، فكانت جميعها تلتزم السفوح التلية العالية في الشرق، وكانت تعززها بخط دفاع وحماية آخر هو أسوار المدينة المتعددة والمتعاقبة. وكل ما حدث أنها كانت تزحف في موضع جنوبى إلى موضع أكثر شمالية.

ومن الطريف، ما دما قد تحدثنا عن المدينة المسورة وسور المدينة، أن نلاحظ أولاً أن مصر في هذا الصدد شذوذ عالمى نادر، وثانيًا أن القاهرة بدورها شذوذ نادر في

مصر نفسها.. ففي العصور الوسطى وعهد الإقطاع كانت المدينة المسورة هي القاعدة العالمية طلباً للحماية من الأخطار الخارجية والصراعات الإقطاعية الداخلية. ولكن حالات ثلاث فقط في العالم لم تكد تعرف أسوار المدن بفضل حمايتها الجغرافية الطبيعية وتصفية النظام الإقطاعي منذ وقت مبكر: تلك هي بريطانيا واليابان ومصر وكلها جزر حقيقة أو مجازاً على ضلوع قارة يفصلها عن بحر الماء أو بحر الرمل. لقد كانت الصحراء - كما يعبر لويس ممفورد - هي السور الطبيعي لمصر. ولكنها لم تكن كذلك للقاهرة تماماً. فقد كانت العاصمة بموقعها وأهميتها موطن الخطر الخارجي دائماً والصراع الداخلي كذلك، فكان السور ضرورة استراتيجية منذ البداية وتعددت أسوارها وتحصيناتها واتسعت مع نمو المدينة، وذلك حين لم تعرف المدن الإقليمية المصرية السور أو الحائط عدا بعض الموانئ الثغور.

هذا عن نمو المدينة في حوض التلال. وفي المراحل اللاحقة فقط بدأ يضاف إلى التوسع نحو الشمال، توسع

في اتجاه جديد نحو الغرب. فمع نمو الأرض الطميية ونضجها الفيزيوغرافي على حساب النهر المتراجع غرباً، بدأ الاستثمار الزراعي ثم البنائي العمراني يزحف غرباً. لقد بدأت المدينة تنزل هابطة من الكنتورات العالية إلى الكنتورات المنخفضة بالتدريج. وبعد أن كانت تشبث بضلع التل ورأسه وتخشى الاقتراب من النهر حيث خطر الفيضان والاستبحار أو كما لو كانت تخجل منه -riv- er-SHY أخذت تتحول من مدينة أكر وبوليس معلقة إلى مدينة نهرية شاطئية مستوية. لقد تحررت المدينة من عقال الجبل وإسار السور معاً وفي نفس الوقت.

وفي المحصلة، فلقد أخذت رقعة العمران والمنطقة المبنية تنمو في اتجاهين لا في اتجاه واحد، شمالاً وغرباً، أو قل على محور شمالي غربي عمومًا. وتلك هي الحركة التاريخية الأساسية والمفتاح في نمو القاهرة، وهي حركة مطردة وإيقاع ثابت، مهما توقفت المدينة أو انتسكت في مراحل الجمود أو الانكماش.

وحتى أيام الحملة الفرنسية ومحمد علي كان خط

الحسينية - باب الشعرية - بولاق يمثل أقصى حدود امتداد المدينة شمالاً، دون أن يعنى هذا بالضرورة أن كل ما إلى الجنوب كان عمراناً كاملاً وسكنى متصلة، بل كانت هناك فجوات شاسعة تتخلل المنطقة المبنية، ودون أن يعنى كذلك انعدام العمران المبعثر الخفيف إلى الشمال ولقد كان محمد على هو الذى اخترق ذلك الحد وتعداه شمالاً، نحو شبرا، كما كان عباس هو الذى بدأ العباسية عبر الحسينية. ومع ذلك فقد كان محمد على نفسه هو الذى بدأ الاتجاه إلى جاردن سیتی لتكون سكناً راقياً لعائلاته، بينما أن حى الاسماعيلية لم يبدأ إلا أيام إسماعيل والتوفيقية أيام توفيق.

وبالمثل فإن النمو الأساسى فى نطاق مثل الفجالة - الظاهر - غمرة - السكاكينى، أى جنوب خط المترو ومحطة مصر، لم يتم حقيقة الا بعد ١٩٠٠. وأحدث من ذلك كله بالطبع نمو الشمال الشرقى ابتداء من الدمرداش ومنشية الصدر عبر القبة بأقسامها ومنشية البكرى حيث يتفرع إلى شعبتين: إلى الزيتون فالحلمية

فالمطرية فعين شمس شمالاً، وإلى مصر الجديدة جنوباً. وهذا يصدق أيضاً على نمو الشمال ابتداءً من روض الفرج إلى الساحل وشبرا (بأقسامها الحدائق والخيمة والمظلات والبلد).

ونفس الشيء يقال عن الضفة الغربية حيث ظلت الجيزة مدينة متواضعة إلى بداية القرن الحالى، وظلت تنمو شمالاً ببطء كشریط يزداد سمكاً وعمقاً، إلى أن دخلت فى موجتها المدية مع وبعد الحرب الأخيرة حتى وصلت عبر الدقى والعجوزة إلى امبابة فى عروض تناظر عروض حى الساحل على الضفة الشرقية أو تكاد. وبعد أن كان عمران الجيزة يقع دائماً «جنوب» القاهرة، أصبح يقع «غربها» نصاً. وهنا نلاحظ أن نمو الضفة الغربية باستثناء بندر الجيزة هو نمو طارئ حديث جداً إذا قورن بالضفة الشرقية عموماً.

وهنا لا تتأكد لنا حقيقة واحدة وهى أن النمو كله - على الضفتين - مندفع نحو الشمال، وإنما تتأكد كذلك حقيقة أخرى لا تقل مغزى وخطراً وهى أن النمو

متوقف تمامًا إلى درجة الشلل في الجنوب، وفي الضفتين أيضًا على السواء. فلم تتعد مصر القديمة حدودها الزمنية قرب أثر النبي، وكذلك الجيزة القديمة (البندر). وإذا كانت المعادى وحلوان على الضفة الشرقية تمثلان نموًا حديثًا وعصريًا، حلوان منذ اسماعيل كمدينة استشفاء، والمعادى منذ توسعت وتوطدت جالية الاستعمار البريطاني، فإنها تمثل ضواحي منفصلة عن جسم المدينة ولا تنقض القاعدة بقدر ما تؤكدتها. وقل الشيء نفسه عن نمو منطقة الهرم حديثًا، فهي أقرب إلى النمو الشريطي الخطي على أطراف المدن Ribbon development.

والخلاصة أن الحدود الجنوبية لجسم القاهرة تمثل الثوابت الاستاتيكية Constants في حركة المدينة، حيث تمثل الحدود الشمالية العوامل المتغيرة النامية والدينامية Variables وأن في مجرد الفرق في التسمية بين مصر القديمة في أقصى الجنوب ومصر الجديدة في أقصى الشمال لتلخيصا بليغا لكل تاريخ وحركة النمو داخل هذا

المجمع المدني الحافل.

على أنه ليس يكفي أن نفسر هذا التناقض بين الشمال والجنوب بحتم الموضع المحلي وحده من اختناقه في الجنوب وانفساحه السهلى في الشمال. فلا شك أيضا أن ثروة الدلتا الغنية من زراعة وانتاج، وانفتاحها بما يقع خلفها من موانى واتصالات خارجية تجارية، تمثل لا شك قطب جاذبية للعاصمة أقدر على تغذية صناعيتها بالخمات وسكانها بالغذاء وأسهل اتصالا وأقدر على التصرف الخارجى. بل قد يمكن أن يقال إن نمو القاهرة شمالا في لسانيه الأساسيين شمالا وشمالا شرقا هو انعكاس بعيد في نهاية المطاف لجاذبية الاسكندرية والسويس على الترتيب..

وإذا كان التناقض في قوة النمو واضحا صارخا للوضوح ما بين الشمال والجنوب، فهو على الأقل حقيقة مؤكدة ما بين الشرق والغرب أيضا. ففي الشرق حائط المقطم يقف حائلا منذ العصور الوسطى يخلق كل إمكانيات النمو، حتى في الوقت الحالى لا يمثل مشروع

مدينة هضبة المقطم أكثر من محاولة رمزية. أما غرباً فإن
المدينة استعمرت النهر نفسه - أعنى جزيرتى الجزيرة
والروضة - ثم عبرته لتجعل من الضفة الغربية شقيقة
صغرى للشرقية تناظرها طولاً وأن دقت عرضاً، ولتجعل
من المجمع المدنى كله مدينة ضفتين تمتطى النهر كما يقال
à cheval .

ومن المحتمل فى المستقبل أن يرجح معدل النمو فى
الضفة الغربية معدله فى الضفة الشرقية نسبياً، لأن الأولى
هى جبهة ريادة العاصمة الآن وطاقة أو كوة رئيسية
لتمددتها. ويمكن أن نعبر عن هذا بطريقة أخرى فنقول
إن دفعة النمو إذا كانت اليوم أقوى نحو المحور الشمالى
فقد تتحول فى بضعة عقود الى المحور الغربى. وقد وصل
عمق الضفة الغربية اليوم إلى بولاق الدكرور فى الجنوب
وميت عقبة فى الشمال، وربما واصل نموه إلى الخط
الشرىانى للسكة الحديدية بين الوجهين.

وعند هذا الحد نستطيع أن نرى بسهولة أن المدينة إذ
ترحف شمالاً فى موجتها المدية العاتية، وبسرعة العاصفة

في العقود الأخيرة خاصة، مع ثباتها المطلق أو شبه المطلق في الجنوب، فهي إنما تنتقل بالتدرج مبتعدة عن الصعيد وملتحمة بالدلتا. أن الأصل في القاهرة - عاصمة - أنها بموقعها ومصدر سكانها ووظائفها القومية وكضابط إيقاع بين أجزاء الوطن وأقاليمه، تنتمي إلى الدلتا بقدر ما تنتمي إلى الصعيد. ولكن الواقع المحقق الآن أنها أدخل في فلك الدلتا وأشد التصاقاً بها وزحفاً إليها..

ذلك وكأنما هي تزحف تدريجياً مع رأس الدلتا (التي كانت إزاء منف وقت أن كانت العاصمة الفرعونية) والتي تزحف شمالاً باستمرار. أو كأنما هي تزحف مع مصر الحديثة عموماً، حيث يقتصر المعمور في أقصى جنوب الصعيد (منذ خزان أسوان ولكن بالأخص مع السد العالي)، ويتمدد في أقصى شمال الدلتا (مع استصلاح البرارى الذى سيصل بالأرض الزراعية قريباً الى سيف البحر)، أو - أخيراً - كأنما هي ترمز إلى تناقص وزن الصعيد النسبى في اقتصاد مصر وعمرانها بالقياس إلى الدلتا (الصعيد الآن لا يقدم إلا ٣٨٪ من

عائد الزراعة المصرية)..

وهذا ما يقودنا إلى وجه شبه آخر في الشكل بين نمو القاهرة الكبرى وامتداد الأرض السوداء في مصر. إذا أنت نظرت إلى خريطة القاهرة فلن تخطئ بالتأكيد شكلها الكأسي الخاص، فهي أولا وأساسا مدينة طولية أكثر منها عرضية، فبينما يصل امتدادها على المحور الطولي إلى نحو ١٣ كم، لا تزيد في أقصى عرض لها عن ٧ كم، وتقل عن ذلك كثيرا في المتوسط وقد تصل الى حد الاختناق في أقصى الجنوب. وبينما يأخذ النيل محورا شماليا جنوويا بعامة، ينفرج الخط الواصل بين مصر القديمة ومصر الجديدة إلى أقصى حد ممكن.. ويلاحظ أن جبهة الزحف شمالا لا تمثل خطا واحدا منتظما، بل يتقعر في وسطه لأنه يتقفل أساسا في محورين هما كتلة مصر الجديدة - عين شمس في الشمال الشرقي وكتلة شبرا - روض الفرج في الشمال، هذه بحذاء الصحراء وهذه بحذاء النيل، وبين هذين اللسانين برزخ أو خليج عريض من الأرض الزراعية.

الشكل إذن مروحى بوضوح، تكمن خلفه ضوابط
الموضع وتضاريسه الأولية، سواء أخذنا الضفة الشرقية
على حدة أو إذا أضفنا إليها الغربية. وهذه اذن مروحة
منشورة مفتوحة، يدها في الجنوب. وهذا يذكرنا على
الفور - وان يكن على تصغير شديد - بشكل الدلتا
نفسها. وحتى لسانا النمو الشماليان السابق ذكرهما
يكملان التشبيه بفرعى دمياط ورشيد! بل اننا إذا أضفنا
الذيل المبتور من النمو المتقطع على استحياء في الجنوب
عبر المعادى وحلوان كيد قصيرة لمروحة العاصمة،
لاقترب الشكل جميعاً من هيئة مصر عمومًا حيث يرسم
الصعيد يدًا طويلة جدًا، ولكنها ليست قوية جدًا، لمروحة
الدلتا. إن عاصمتنا لا تلخص كيان مصر البشرى
فحسب، وإنما تختزل شكلها الجغرافى أيضًا في بقعة أو في
كبسولة..

ماذا إذن عن توسع ونمو القاهرة الرأسى، بعد ذلك
النمو الأفقى الطاغى؟ معه جنبًا إلى جنب تقدم بإيقاع
متناغم. فتاريخ المدينة لم يكن تمديدًا للأطراف فحسب

بل وتكثيفا للداخل أيضا. ولقد أتى على القاهرة حين من
الدهر كانت تتخلل منطقتها المبنية فجوات وفراغات
ضخمة من الخراب أو الخواء، وحتى أوائل القرن الماضي
كان جسم المدينة مبعثراً مخلخلاً غير ملموم، ولكنه أخذ
يلتئم بالتدريج. وبينما كانت الأطراف تنمو كفيالات
مبعثرة وسط الحقول، كانت الفيالات في الوسط تتحول
إلى عمارات، والعمارات تتناطح وتتلاحم وتتسابق إلى
أعلى كالأشجار في الغابة تتصارع من أجل الوصول إلى
الشمس. وبين هذا وذاك جميعا توشك المدينة أن تغص
وتختنق ولا تكاد تجد رئة خضراء أو مساحة مكشوفة.
والناظر إلى خريطة المنطقة المبنية اليوم في القاهرة قد
يحسب خطأ أن بها فراغات غير مستغلة كتلك التلويح
المتقدمة في عين الصيرة وزينهم وقطع المرأة في شرق
المدينة. ولكن الحقيقة إن هذه حدود المنطقة المبنية هناك،
وانما تفصل بين مدينة الأحياء ومدينة الأموات،
أما المنطقة المبنية فكتلة متصلة لا انقطاع لها.

وفي ختام هذا الحديث عن النمو، لابد لنا من وقفة

تجيب على سؤال ملح: ما الذى أطلق المدينة من عقالها، خاصة منذ القرن الماضى، كمارد خرج من القمم؟ لقد ظلت المدينة الوسيطة تحتل رقعة متواضعة محدودة فى شرق المنطقة، ولم تخرج من قوقعتها التاريخية والجغرافية إلا فى أواخر العصور الوسطى - وعلى استحياء ذلك. ثم مع القرن الماضى فقط تمددت تمدداً جديداً تماماً صوب النهر، ولم تزل خطاها تتسارع باطراد فى العقود الأولى من هذا القرن، ولكنها منذ الحرب العالمية الثانية وحدها انفجرت فى موجة مديدة حقيقية هى منذ الثورة أسرع وأعتى منها فى أى وقت مضى. ونحن نستطيع أن نصنف هذه الفترات فى تاريخ حياة المدينة إلى مراحل ثلاث أساسية: الأولى هى المرحلة النووية، والثانية هى التكوينية، والاختيرة هى الانفجارية.

ولعل رقعة القاهرة قد نمت فى القرن السابق للحرب الثانية أى فى المرحلة التكوينية أكثر مما نمت طوال الألف عام منذ نشأتها العربية أى فى المرحلة النووية، بينما قد يزيد نموها بسهولة فى مرحلتها الانفجارية فى ربع القرن

الأخير عنه طوال القرن الاسبق عليه. لقد خرجت القاهرة عن وصاية الجبل الأبوية، وانساحت من المقطم إلى الهرم، ومن الصحراء إلى الصحراء، ومن حلوان إلى شبرا الخيمة، وبعد أن بدأت بحدود صارمة كالخط الهندسى هى سور المدينة أصبحت تتخلل المزروع وتخلخله كمدينة بلا حدود. ومن السهل أن نتبع انعكاس هذا كله رقمياً فى تعداد السكان، ولكن يكفى هنا أن نذكر أن المدينة التى بدأت مع محمد على ربع مليون وانتهت معه ثلث مليون، قد تعدت الآن الخمسة ملايين.

مرة أخرى: لماذا، وما هو الزناد الذى أطلق هذا النمو المرید؟ ثمة على الترتیب عاملان ضابطان أو محرکان، لا يكفى أى منهما وحده تفسيراً إلا لمرحلة محددة. الأول هو الموضع والثانى هو المواصلات. فمن السهل أن نرى أن النمو فى المرحلة النووية يتفق مع نمو رقعة الموضع تجاه النهر ومع تراجع النهر نحو الغرب بالتدریج. ولكن لا شىء يفسر المرحلة التكوينية، فضلاً بالتأكید عن الانفجارية من بعدها، إلا ثورة المواصلات.

الحديثة. فحتى محمد على، كانت الدواب هى وسيلة النقل الأساسية داخل المدينة، والمركب الشراعى وسيلته خارجها. كان نفس الحركة البشرية قصيراً للغاية، ومعه كان توسع المدينة قاصراً بالضرورة. ثم بدأت سلسلة تاريخية: من الدواب إلى عربات الخيل الى خطوط «سوارس» المنتظمة إلى الترام ثم أخيراً السيارة الخاصة والعامّة. وحدود القاهرة العمرانية فى أى لحظة خلال هذه المرحلة هى وظيفة لهذه الوسيلة أو تلك.

ثم سؤال آخر وأخير ينبثق من سابقه: هذا النمو، هل هو صحى سليم تماماً؟ أيسير فى أنسب خطوطه واتجاهاته الأكثر ترشيداً؟ لن نقف هنا عند قضية تضخم العاصمة فى جسم البلد حيث بلغت الخمسة ملايين من ثلاثين مليوناً أويزید، ولن نقول «الورم الأكبر The great Wen» كما قال كويت Cobbet عن لندن فى عصر الصناعة. فمن المحتمل جداً أن القاهرة تعاني من إفراط المتروبوليتانية مثلما تعاني مصر نفسها من إفراط السكان بعامّة. ولكن لعل أخطر من هذا النمو - الشيطاني نوعاً

Mushroom - ملمح ملح مزمن قد يحمل شبهة النمو
السرطاني ذاته.

والإشارة هنا هي يقيناً إلى توسع الرقعة المبنية على
الأرض الزراعية الثمينة في عالم جغرافي متناه يعانى من
مجاعة أرضية. فكثير من أبناء القاهرة يذكرون ولا شك في
مدى عمرهم آلاف الأفدنة الزراعية في شبرا والجيزة
(بمعناها الواسع) وكيف كانت طرق المواصلات والترام
تمضى لأميال وسط مزارع ومشاتل الفواكه والزهور
والخضروات الكثيفة، ظلت تتضاءل وتنكمش بالتدريج
وظل بعضها يقاوم كجزر صامدة وسط بحر المباني. ولكن
هذا كله تحول اليوم إلى مبان كثيفة ونفيت الزراعة إلى
آفاق بالغة التطوح والبعد. وإذا كان هذا لا يصدق على
لسان النمو في اتجاه مصر الجديدة فهو للأسف صادق
على شعبته الثانية في اتجاه عين شمس حيث لا يحاذى
امتداد العمران حافة المزروع وإنما يترامى عليه،
لا يجاوره بل يجاوزه.

إن المدينة تأكل سكانها كما يقال، ولكنها هنا تأكل

أرضها أيضاً، فهي من قوارض الأرض الزراعية، وبشراهة ذلك. وقد آن أن يكون الرمل للعمران والطين للزراعة. وفي شمال شرق القاهرة تجاه العباسية ومدينة نصر ومصر الجديدة محور الرمل الأنسب، بينما قد يكمن الحل بعد ذلك في الضواحي المنفصلة فيزيقياً عن جسم المدينة بحيث تقوم لا في عرض الوادى وإنما على حافتي الصحراويين، خاصة على طول مخارج المدينة الأساسية في طريقى الاسكندرية والسويس الصحراويين.

شبكة الخطة وشبكة المواصلات

حتى النظرة العابرة إلى خريطة القاهرة، بشبكة شوارعها ومربعاتها السكنية، لا يمكن أن تخطى ثلاثة ملامح بارزة في خطة العاصمة. أولها وجود عنصرين أساسيين يتقاسمان رقعة المدينة: تخطيط - أو بالأصح لا تخطيط - عشوائى تلقائى يمثل النمط العتيق فى المدن بل والقرى المصرية عامة، ويمثل فى العاصمة مناطق النواة

القديمة منها، وتخطيط هندسى مصمم منتظم فى أشكال
مربعة أو مستطيلة أو مضلعة أو دائرية، يمثل بدوره
العنصر العصرى «الأوربى» الجديد فى تركيب المدن
المصرية الذى أدخل منذ القرن الماضى فقط. وهذه
الثنائية الأساسية فى الخطة ترمز بسهولة وبلاغة إلى
الثنائية الحضارية فى مصر المعاصرة حيث يتعايش القديم
والجديد والأصيل والدخيل.

الملح الثانى هو سيادة مساحة التخطيط الهندسى
الحديث سيادة حاسمة بالنسبة إلى مساحة اللاتخطيط
العشوائى القديم. وقد يبدو هذا غريباً نظراً لحداثة عهد
التخطيط الهندسى المنتظم، ولكنه فى الحقيقة يلخص - فى
نظرة - قصة نمو المدينة الحديث حيث وجدنا أن الرقعة
الكبرى من كتلة المدينة هى أساساً بنت القرن الاخير
والمرحلتين التكوينية والانفجارية فى تاريخها. أضف إلى
هذا أن كثيراً من عمليات التقويم والتهذيب الهندسى
فرضت على رقع واسعة من مناطق التخطيط القديم،
مما يخفف من انتشارها وإن لم يخف آثارها ثالثاً، وأخيراً،

فمن الواضح أن مناطق الخطة العشوائية القديمة تنحصر أساسًا في أطراف المدينة القديمة خاصة في الشرق والجنوب، وإن وجدت منها جيوب شاذة في الشمال أو الوسط. وعلى أية حال، فإن هذا الوضع أوضح جدًا في الضفة الغربية منه في الشرقية، حيث يقتصر هناك على أقصى الجنوب بصرامة ويسود التخطيط الهندسى كل الشمال. ويعنى هذا في نفس الوقت أن القديم يرتبط بالكتنورات الأعلى من المدينة، بعكس مناطق التخطيط الهندسى الحديث.

وهذا الملمح الأخير كله يتفق إلى حد كبير مع قانون الخطة في المدينة المصرية عامة، حيث نجد دائمًا كتلة قديمة عشوائية في القطاع الجنوبي تقوم على ربوة صناعية مرتفعة محدبة كطبق مقلوب، بينما تتراعى تحت أقدامها في القطاع الشمالى وعلى مستوى الأرض الطبيعى رقعة من التخطيط العصرى المنتظم. فالقطاع الجنوبي هو نواة المدينة قبل العصر الحديث، والشمالى هو النمو الحديث فى القرن الأخير. وتتناسب مساحة كل من القطاعين إلى

الآخر بحسب خطة المدينة من النمو والتضخم في الفترة الحديثة. أى أنه كلما زاد نمو المدينة ودرجة انفجار هذا النمو، قلت نسبة مساحة النواة العشوائية القديمة إلى مساحة التخطيط الهندسى الحديث - والعكس.

في ضوء هذه المؤشرات الأساسية، يمكننا الآن أن نتبع خطط القاهرة بشيء من التفصيل.. ولنبدأ باللاتخطيط القديم. هذا نوع من الخطة البدائية الفطرية التى تظهر تلقائية غير عامدة، خطة بلا تخطيط كما قد نقول، تبرز من مجرد تجمع المباني معاً. وهى فى جوهرها خطة القرية المصرية والتى لا تخلو تماماً من منطق، بل ومنطق هندسى، ولكنه باهت بالغ التقريب. فثمة حول الحلة طريق دائرى ولكنه غير منتظم (داير الناحية) تخرج منه إلى قلب المنطقة المبنية عشرات من الطرق الضيقة والحارات التى تنتهى إلى نهايات مسدودة فى قلب البلد - أى أزقة مغلقة - والتى تتلوى وتتفرع وتتخلل الكتلة المبنية بدرجة أو بأخرى. والعشوائية بادية لاشك فيها، ولكن خلفها تكمن جرثومة الخطة المتشعبة أو

الدائرية المتشعة بصورة أو بأخرى radio-concentric .
وتنتشر هذه الخطة البدائية أكثر ما تنتشر في القطاع
الشرقي والجنوبي من القاهرة شرق النيل ابتداء من باب
الشعرية والأزبكية والظاهر والحسينية في الشمال، حتى
السيدة زينب وطولون والسيدة نفيسة جنوباً. ثم تعود
فتظهر في مصر القديمة في أقصى الجنوب. وهذه بالفعل
هى القاهرة القديمة والأحياء التاريخية والتقليدية التى
تستمد طابعها من ضيق الأزقة والحوارى المسدودة
والتوائها وتعرجها الشديد، الذى يضاعف منه تضرس
الطرق بسبب الموضع التلى وتحولها أحياناً إلى طرق
سليمة، والذى يضاعف دوره من كثافة المساكن والسكان
ودرجة التضاحم. والكل ينتهى إلى تيه لابرنتى من شبكة
طرق لا تصلح للمواصلات الحديثة بحال. من هنا كان
التهذيب والتقويم بتوسيع وفتح كثير من الحارات
والشوارع، أى بعملية فرض أو مزاججة مفروضة بين
اللاتخطيط والتخطيط. والواقع أن هذه العملية واسعة
الانتشار فى كل هذا النطاق.

ومن طريف المقارقات هنا أن نلاحظ أنه بينما تبدو

أحياء شرق القاهرة ضائعة في خطتها المضطربة العشوائية نجد إلى الشرق والجنوب منها توأ أو وشيكًا مساحات من التخطيط الهندسى النظيم الدقيق تغطى رقعة كبيرة من خريطة المدينة. على أن هذه لا ينبغى أن نتخذ عنها، فإنما هى مدينة الأموات - المقابر والجبانات المترامية فى حى الخليفة وفى قايتباى والغفير - التى تقسمها شوارع منتظمة مهندسة وتحمل كما لاحظ ديزموند ستيوارت بدهشة أسماء وأرقاماً !

ثم نعود فنقابل توزيع الخطة العشوائية تلك، مع نفس محاولات التعديل وجراحة التجميل التى يفرضها تنظيم العاصمة، فى حى بولاق، حيث يبدو كجزيرة شاذة وسط التخطيط الهندسى، ثم لا نلقاها بعد ذلك إلا عبر النهر فى أقصى الجنوب من الضفة الغربية، أى فى نواة الجزيرة القديمة (البندر) حيث تتناثر بوضوح صارخ مع بقية التخطيط الهندسى المنتظم إلى الشمال.

وإذ نتقل إلى التخطيط الهندسى الحديث، الذى يغطى بقية رقعة العاصمة فيما عدا بعض جزر وأسافين

قزمية متفرقة من التخطيط العشوائي على أطراف المدينة
هى القرى والعزب السابقة التى أغرقها وابتلعها المد
الحديث، كمنية السيرج وبعض العزب المبعثرة فى شمال
شبرا، وقرى كإمبابة وميت عقبة وبولاق الدكرور فى
الضفة الغربية، إذ تنتقل إليه نجد صورة مختلفة تمامًا،
بسيطة جدًا ولكنها بالغة التعقيد جدًا. فالمدينة هنا عبارة
عن موزايكو لا نهائى من وحدات مساحية ذات أشكال
هندسية منتظمة تتراوح بين المربع والمستطيل وقليلًا
ما تجنح إلى الدائرة أو المضلع. ولكنها دائمًا خطوط
هندسية وزوايا قائمة تتألف من مربعات سكنية مماثلة فى
هندستها. أما التعقيد فمصدره أن هذه الأشكال المنتظمة
القائمة الزوايا لا تتبع فى توجيهها بالنسبة للجهات
الأربع الأصلية محوريًا واحدًا باستمرار، كما هو الحال فى
المدينة الأمريكية مثلًا، وإنما تتبع - حرفيًا - عشرات
وعشرات من المحاور التى تختلف من رقعة إلى أخرى،
وتستقل بها كل واحدة عن الأخرى كأنها صفحة ألغاز.
Jig-saw. ومن هنا قلنا بسيطة ومعقدة فى آن واحد.
ولا يستثنى من ذلك إلا المعادى وحلوان حيث محور

توجيه الخطة المربعة الصارمة موحد بصرامة أكثر في كل المنطقة المبنية.

وإذا كانت المحاور القاعدية التي تحكم تلك الرقع الشطرنجية اللامتناهية متنافرة كل التنافر، فالمهم أنها لم تتحدد اعتباطاً، بل هي من وحى وتوجيه ضابطين أساسيين: النهر، ذلك الشريان المحورى الذى تطل عليه واجهة كبيرة من المدينة، والشوارع الرئيسية أى الطرق الشريانية التى تفتح الأحياء وتمثل مفاتيح الحركة فيها وبينها.

فأما النهر فموجه حاسم وحتمى. فسواء على الضفة الشرقية أو الغربية، ولكن على الأخيرة بالأخص، يجرى عدا الكورنيش وبعده شارع رئيسى (ممتطياً ظهر جسر الطراد عادة) يمتد بطول النهر ويحاذيه، كشارعى الجيزة والقصر العيني على الترتيب. ولما كان للنهر تعرجاته وانحناءاته، فإن ذلك الشارع يتبعها بأمانة. وكذلك تفعل الشوارع الثانوية الموازية إلى الداخل. ولما كانت الشوارع العرضية عمودية على الطولية، فإن شبكة

الشوارع برمتها تظل تتفاوت وتتغير في محاور اتجاهاتها الأصلية من قطاع إلى آخر بحسب تعرجات النهر الحاكمة.

خذ كل الضفة الغربية من الدقى حتى إمبابة، ولن تجد لهذه القاعدة تبديلاً. وكذلك الشرقية جنوب ميدان التحرير وبعمرى سكة حديد حلوان: الشوارع الطولية تحاذى النهر، والعرضية تتعامد عليه وعليها. وبالمثل فى جزيرة الروضة، حيث توازى الشوارع الطولية شاطئى الجزيرة الاثنى، حتى إذا ضاقت الجزيرة فى الجنوب تبعث الخطة محور أحد الشاطئى دون الآخر، فتتكون شرائح مثلثة شاذة. ونفس الشىء واضح فى فم الخليج وأبوالسعود شمال مصر القديمة، مثلاً هو فى الشمال فى روض الفرج والساحل عمومًا.

أما عن أثر الشوارع الرئيسية على الخطة فأوضح فى الداخل، بعيداً عن أثر النهر. فهذه تصبح العمود الفقرى الذى تركب عليه - بزوايا قوائم - تفاصيل الخطة الهندسية، فإذا انحرف العمود انحرفت معه

واتجهت بحسب توجيهه. أما مسارات تلك الشرايين فتحددها المواقع النسبية بين النقط الاستراتيجية في المدينة، أو ربما ضوابط المواضع القديمة كالترع الحفرية التي ردمت وتحولت إلى بوليفارات وجادات رئيسية كالخليج المصرى (شارع بورسعيد الآن) والترعة البولاقية (شارع الترعة البولاقية).

والأمثلة عديدة. ففي شبرا محور مستقيم هو شارع شبرا، ومحور منحرف هو شارع الترعة البولاقية، وكل تفاصيل الخطة المربعة في الحى برمته تعكس اتجاه كل منها. ولكن المثل الكلاسيكى هو شمال شرق القاهرة ابتداء من غمرة والظاهر حتى مصر الجديدة وعين شمس، حيث المحور الحاكم هو مترو خط الضواحي. ففي كل هذا النطاق المترامى ستجد خطط الشوارع كلها مربعات منتظمة، ولكن على عديد من المحاور المتنافرة جدًا. غير أن هذه جميعًا إنما تتحدد بدورها بنقط ارتكازها أو قل مفاصل ارتكازها على طريق المترو، الذى ينحن ويتعرج بحسب مساره ووجهته. والنتيجة أن منطقة مثل غمرة تأخذ مربعاتها السكنية محوريًا يوشك أن

يكون شرقياً غربياً، بينما أن منطقة كالمطرية وعين شمس
ينقلب فيها المحور إلى شمالي جنوبي، في حين يتعدل فيما
بينهما بالتدرج كالبندول.

هذا، وتمثل الزمالك - النصف الشمالي من الجزيرة -
حالة طريفة، ففيها يجتمع أثر النهر والشارع ليدمغا الخطة
بطابع فذ. فالشوارع الطولية تتبع محور الشارع الرئيسي
الحاكم الذي يقطع الجزيرة بين كوبرى ٢٦ يوليو
(أبو العلا) وكوبرى الزمالك، وبذلك تتقاطع الشوارع
الطولية والعرضية بزوايا حادة لتترك بينها أشكالا
هندسية نادرة كالمعين وشبه المنحرف.. إلخ، بينما إلى
الجنوب من شارع الكوبريين تسود شبكة مربعات
منتظمة تتوازي معه وتتعامد عليه نصاً.

وينبغي أخيراً أن نذكر نمطاً خاصاً ومحلياً من
التخطيط الهندسى، لا يتبع مبدأ الزوايا القائمة بقدر
ما يتبع الدوائر المتقاطعة والأقواس المتداخلة. ونعنى بهذا
خطة الحدائق الإنجليزية English Gardens، التى تنحدر
أصلاً عن فن تخطيط البساتين Landscape gardening ففى

جاردن سیتی وحدائق القبة نجد خطط الشوارع كأقواس منحنية أو كدوائر متقاطعة متعددة المراكز. وبقدر ما تعطى هذه من منظور معمارى فخم ومبان انسيابية فى لاندسكيب الحى، تعطى من مشاكل المواصلات. فهاتان المنطقتان مناهتان من أشق قطاعات العاصمة لسكانها ولغير سكانها على ما نعلم.

وإذا نظرنا إلى مناطق التخطيط الهندسى فى العاصمة بعامة، أمكننا أن ندرك من تعدد محاور توجيه قطاعاتها المحلية أنها لم تخطط أو تنشأ فى ظل خطة عظمى موحدة بل أتت بالقطاعى مع النمو الجزئى. ولهذا فهى تترايط وتتماسك مع بعضها البعض بطريقة رديئة مفككة غالباً، والأغلب أن تترك فيما بينها مساحات وجذاذات شاذة الشكل أو حادة الزوايا.

وصحيح أن هذا التعدد والتنافر فى محاور التوجيه يخفف من تنميط الخطة ورتابة الأحياء والشوارع، كما يعنى تعدد التوجيه بالنسبة للشمس وللرياح فيعطى فرصاً أكثر للتهوية والإشعاع والظل، كما يمنع تحول

المدينة إلى تيارات للرياح الشمالية السائدة مثلاً. ولكن نقطة الضعف الكبرى أنه يترك ترابط المدينة العضوى عن طريق المواصلات ضعيفاً مفككاً. وينم عن هذا ويشى به محاولات موضعية هنا وهناك لفرض مجموعة من الشوارع المتشعبة على بعض تلك الخطط الهندسية المربعة، تتحول بها إلى شيء أشبه بالخطط الدائرية المتشعبة أو قل المضلعة المتشعبة، كما فى الاسماعيلية فى وسط البلد وكما فى وسط الروضة وفى العجوزة ثم السكاكنى بالظاهر، ولكن بالأخص فى مصر الجديدة.

غير أن هذا غالباً ترقيع موضعى أوتحايل محلى، ومن المحقق أن القاهرة نمت بالقطاعى ولصقت أجزاء خطتها إلى بعضها بالتقسيط وبلا إطار عام. فإذا أضفنا إلى ذلك مشكلة المناطق العشوائية المختنقة، مع ضخامة رقعة العاصمة عموماً، لكان حقاً أن يقال إن القاهرة من المدن التى يصعب التعرف على أجزائها والحركة فيها. ولكن هذا أدخل فى باب المواصلات، وهو ما نقلنا إلى شبكة النقل العاصمة.



رغم بعض الشوارع الرئيسية التي تحاول أن تصحح أخطاء الخطة المربعة المتعددة المحاور وأخطاء الالاتخطيط العشوائى، إلا أننا لا نستطيع أن نتحدث عن خطة فوقية متشعة على مستوى العاصمة ككل. وهناك أكثر من بؤرة تتشعع منها مجموعات من الشوارع الرئيسية هى التى تتبناها خطوط المواصلات شبكة مفضلة لها. ولعل أهمها محطة مصر حيث تخرج منها شرايين شارع شبرا شمالاً، وبولاق غرباً، والجلاء جنوباً بغرب، الجمهورية جنوباً (إبراهيم سابقاً)، ثم شارع رمسيس بوابة وعنق زجاجة كل ضواحي شمال شرق القاهرة. وتقدم العتبة بؤرة أخرى، فميدانها مصب لحركة شرق المدينة: شارع الجيش إلى العباسية، شارع الموسكى - جوهر إلى الجمالية، شارع الأزهر إلى الغورية والدراسة، شارع القلعة إلى القلعة والخليفة. وميدان باب اللوق والسيدة زينب يؤر أخرى.

على أن هذه الحزم المتشعة لا تؤلف فيما بينها خطة متشعة بمعنى الكلمة، ولو أن الملاحظ أن شبكة خطوط الترام كانت تقليدياً وحتى قريب تنتخب لها من الشوارع

ما يرسم خطة متشعبة بارزة، لا سيما من مركزين هما ميدانا محطة مصر والسيدة زينب.

وعدا هذا فينبغى أن نلاحظ أثر مواقع الكبارى النهرية على تقنيل شبكة المواصلات. فعلى جانبي النهر فى كل من كوبرى التحرير وكوبرى الجلاء يتحدد موقع حزمة كثيفة من محاور الحركة والنقل، بل إن كلا من هذين الميدانين يشكل فى الواقع بوابة ضفته الحقيقية على النهر. ومثل هذا يقال عن كوبرى ٢٦ يوليو والزمالك فى الشمال، وكوبرى الجيزة والملك الصالح فى الجنوب، بدرجات متفاوتة. والحقيقة أن مواقع هذه الكبارى المتناظرة والمترابطة، التى هى أعناق الزجاجاة الحاسمة والخائقة بين ضفتى النهر، هى التى تحدد معظم الشرايين العرضية التى تقطع المدينة من طرف إلى طرف. والتى تعاني القاهرة من قلتها بوضوح.

ولأن القاهرة مدينة طويلة أكثر منها عرضية، فإن أهم محاور وشرايين الحركة هى الشمالية الجنوبية التى تخترق بالضرورة قلب المدينة فيختنق بها. وهذا هو المحرك

الأساسى خلف فكرة إنشاء طريق دائرى يلف بأطرف المدينة دون أن يخترق قلبها، كما يتمثل فى شارع بورسعيد، أطول شوارع القاهرة الآن، والذي يرتبط أساساً بشرق المدينة القديم، وكذلك شارع صلاح سالم الذى شق حديثاً.

من كل هذه الزوايا يتضح لنا بجلاء أن مشكلة المواصلات فى العاصمة لا انفصال لها عن مورفولوجيتها وهيئتها الجغرافية البحتة. ويقف فى مقدمة هذه الضوابط الجغرافية اثنان. أولاً، انشطار المدينة إلى شقين أو ضفتين، الأمر الذى يجعل على الفور من كبارى النهر أخطر نقط استراتيجية حرجة فى تدفق الرحلة اليومية إلى العمل. ثانياً، اتخاذ أطراف المدينة الشمالية شكل لسانين أو مثلثين ضخمين فى شبرا - روض الفرج وفى مصر الجديدة - عين شمس، يتصلان بجسم المدينة فى أضيق رءوسها، أى بأعناق زجاجة مختنقة على التو. وهذا النمط بارز جداً فى الحالة الأخيرة خاصة حيث تبدو كمثلث مسحوب مدبب يكاد أن يكون منفصلاً إلا من عنق دقيق عند كوبرى القبة. فى كل هذه المواقع بنوعيتها، كبارى النهر وأعناق

الضواحي، تتأزم مشكلة المواصلات إلى حد الاختناق.

على أن الذى يضاعف منها أن كل تلك الأطراف فى الضفة الغربية عمومًا وفى شمال الضفة الشرقية هى باستثناءات معينة أحياء سكن أكثر منها أحياء عمل. ثم هى تتضاعف مرة أخرى كالربح المركب بطبيعة هذه الأحياء. فإن كانت شعبية لا تملك كثافة السيارات الخاصة، فهناك كثافة السكان العالية التى تنعكس على وترجم إلى كثافة السيارات العامة (لسان كتلة شبرا - روض الفرج). وإن كانت سكنًا راقياً أقل كثافة سكان، فهناك كثافة السيارات الخاصة (لسان الشمال الشرقى، والضفة الغربية).

ولا تقل شبكة الخطوط الحديدية داخل المدينة مغزى وخطرًا عن شبكة النقل الأخف. ويمكن ابتداءً أن نزعّم أن محطات السكك الحديدية فى المدينة المعاصرة هى بمثابة بوابات مدينة العصور الوسطى وإنما انتقلت من السور الهامش إلى الوسط. إنها «مداخل» المدينة ولكن فى الداخل. ولعلها أكثر من صدفة أسماء «باب» الحديد،

و«باب» اللوق، كأنما تلح لتذكرنا بأنها وظيفة وإن لم تكن موقعاً وريثة «باب» زويلة أو «باب» النصر مثلاً.

ومواقع محطات السكك الحديدية في القاهرة استراتيجية تماماً، فمحطة مصر؛ (وكوبرى الليمون التابعة) ومحطة باب اللوق تحتل مفاتيح المدينة الجغرافية، وتخرج منها الخطوط القومية أو خطوط الضواحي في اتجاهات ثلاثة، شمالاً وشمالاً شرقاً وجنوباً.

ومهم أن نلاحظ أن كلا منها يضاعف بمحطة مركزية كالخلية العارمة لشبكات الأوتوبيس، فهي أقطاب مغنطيسية للمواصلات عموماً ونقط انقطاع وتغيير في وسيلة المواصلات (من السيارة إلى القطار أو العكس). غير أن هذا مما يفاقم من مشكلة الازدحام، بمثل ما أن خطوطها الحديدية تمزج نسيج المدينة وتخلق اختناقات حادة في تدفق حركة المرور كما يتبلور خاصة على طول خط مترو شمال شرق القاهرة.

وقد انعكس تأزم مشكلة محطات السكك الحديدية في المدينة في أن التكامل والتعايش بين القطار والسيارة

تحويل أخيراً إلى صراع انتصر فيه القطار في محطة مصر حيث نقلت محطة أوتوبيسات الأقاليم بعيداً إلى أطراف المدينة في شبرا المظلات بعد معركة تخطيطية محتدمة بين عوامل الطرد والجذب المركزية. أما في محطة باب اللوق فيبدو أن القطار هو الذى سيخسر الحرب، إذ تقرر مبدئياً في مشروع خطوط الانفاق المزمع أن تنقل نهاية خط الضواحي جنوباً إلى كوبرى الملك الصالح.

من كل هذه الخيوط المعقدة إذن تنسج مشكلة المواصلات اخطبوطها الخانق المزمع في العاصمة التى يثست نهائياً من الحلول السطحية - أعنى على سطح الأرض - فلبجأت إلى الحلول تحت الأرضية كما تتمثل في فكرة مترو الأنفاق الذى يعكس مشروع خطته المبدئية شكل المدينة الطولى أساساً. إلا أن جذور المشكلة تكمن في أكثر من قضية، منها الفارق الحضارى: فشوارع المدينة خططت في عصر - ولعصر - ما قبل السيارة وما قبل الصناعة، وهى الآن تعاني بالضرورة من تصلب الشرايين واحتقان الدورة الدموية.

ولقد أثبتت تجربة العواصم الكبرى المماثلة أن خطوط الأنفاق ليست بالضرورة الكلمة الأخيرة في القضية، ولا تلبث مشكلة المواصلات السطحية أن تعود. فلندن وباريس تملكان خطوط انفاقها منذ عقود وعقود، وكذلك نيويورك، ومشكلة المواصلات السطحية لم تزل مزمنة. ولعل بعض الدرس المستفاد هو أن القاهرة الكبرى بحاجة حقيقية - مع أو قبل الأنفاق - إلى عملية «هسمنة Haussmannisation»، كما تسمى، على غرار ما عرفت باريس في السبعينات الماضية، جريئة واسعة الخيال دون أن تكون راديكالية بتارة بالضرورة، فتفرض على أرضية خطتها الفسيفسائية نظاماً متشعباً، متعدد البؤرات - منعاً لتركيز المشكلة في نقطة واحدة - من البوليفارات المحورية الشريانية ذات التوقيع الاستراتيجي بحيث تتحول هيدرولوجية النقل في قلب المدينة إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب.

كذلك لا مفر من إعادة توزيع العمل والسكن في محيط القاهرة الكبرى. فتركيز العمل في القلب التجاري المركزي (C.B.D. كما يسميه الأمريكيون) وغيابه إلى

حد بعيد في الأحياء السكنية في الأطراف عامل جذري وقاعدي. ولعل من الضروري أن يتحول قلب المدينة نفسه هو الآخر إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب، يخلق نويات جديدة في الأطراف كمراكز ثانوية subcentralisation، تخفف الضغط عن القلب المركزي وبالتالي تخفف من كثافة الرحلة إلى العمل.

التركيب الوظيفي

المدينة أي مدينة حزمة من الوظائف في التحليل الأخير، وليست المؤسسات والمباني إلا أوعية مادية لتلك الوظائف المركزية.. غير أن هذه لا تتعايش معاً إلا بعد صراع على المكان، فالوظائف تتنافس فيما بينها على الموقع والموقع الممتاز أو الأنسب من جهة نظرها، وتحصل عليه الوظيفة الأقدر التي تدفع أكثر. ولما كانت قيم الأرض والعقارات والإيجارات أعلى ما تكون في قلب المدينة الضيق المكتظ، فإن وظائف المدينة تتنضد (أي تتفنت) تلقائياً بالتفاعل والشد والجذب بين مجموعة من

القوى الطاردة المركزية centrifugal تطرد الأضعف إلى أطراف المدينة، وبين مجموعة من القوى الجاذبة المركزية centripetal تجذب الأقوى إلى القلب..

والوظائف مجموعتان عريضتان: وظائف عمل وإنتاج كالتيجارة والإدارة والصناعة، ووظائف خدمات كالتعليم والدين والصحة والترفيه. غير أن بين المجموعتين حلقة وصل هامة هي السكن. والسكن وظيفة بالمعنى الصحيح لا شك، بل هو الوظيفة التي تغطي أكبر رقعة من مساحة أى مدينة في العادة. ومصدر أهميتها أنها المفتاح والمدخل الطبيعي لوظائف الخدمات، فهي غالباً الإطار الذى تدور فيه وتشكل به قليلاً أو كثيراً. ومع ذلك فالسكن وظيفة من نوع خاص جداً، ربما قلنا وظيفة سالبة تمييزاً لها عن الوظائف الموجبة من إنتاج أو خدمات. ولهذا فلعل من الخير لنا أن نعالجه على حدة بحسبانه طبوغرافية. المدينة الاجتماعية، حيث تمثل الوظائف الموجبة طبوغرافيتها الاقتصادية.

* * *

وفي القاهرة، إذا بدأنا بالوظيفة التجارية التى تلعب

دورًا حيويًا في كيانها كعاصمة قومية فضلًا عن كونها مدينة كبرى، أمكننا أن نميز بين ثلاثة أنواع من التجارة تمثل في الحقيقة ثلاث درجات من المركزية. فهناك أولاً التجارة المركزية التي تتكدس وتتزاحم بلا هوادة في قلب المدينة. ويلمس القاهري نبض التجارة المركزية في مدينته بالتدريج من مشارف شارع الجلاء ورمسيس حتى أطراف ميدان التحرير وباب اللوق من ناحية، ومن شارع الجمهورية إلى العتبة من ناحية أخرى، حتى الموسكى وما وراءه تجاه الغورية وشارع الأزهر.. الخ ففي هذه الدائرة تتقاطر تجارة التجزئة والجملة السلعية والمالية، الحديثة العصرية والقديمة الوطنية. هنا كل مراكز المؤسسات والشركات الهامة والجمعيات التعاونية والتأمين والبنوك الرئيسية والصيارف والمحال التجارية الضخمة التي تتجاذب حولها المحلات الصغيرة.. وهذه المنطقة التجارية تمثل الجهاز العصبى المركزى للوظيفة التجارية لسكان العاصمة واقليم العاصمة جميعًا.

من أخص خصائص هذه المنطقة أن تجارة الجملة، الأقل اتصالاً بالجمهور المباشر والتي تحتاج إلى

مساحات أوسع، تنزوى نوعًا إلى أطرافها الهامشية تاركة عين المنطقة لتجارة التجزئة وتكتفى هي بأن تقف خلفها لتغذيها وتخدمها. أما التجزئة فتعيش على الموقع الاستراتيجي البارز والدعاية المكثفة وتتعامل مع الجمهور مباشرة وقد يكفيها موطئ قدم صغير ولكنه حساس وباهظ الثمن أو الإيجار. فشارع الجلاء ورمسيس تجاه محطة مضر وتجاه التحرير في منطقة معروف تسودهما مخازن الجملة خاصة من قطع غيار السيارات والإطارات والأدوات الكهربائية. وفي أركان ميدان الفلكي تتركز تجارة إطارات السيارات. وفي مداخل شارع القلعة كما في الفجالة تتركز تجارة الورق والوراقين وأدوات الكتابة. وشارع الجمهورية تجاه المحطة تكثر فيه محلات التحف القديعة والأنتيكات.. الخ. وكل هذه شوارع قل أن يرتادها الجمهور اليومي العريض، وهي أكثر هدوءًا نسبيًا من شوارع مثل ٢٦ يوليو وطلعت حرب وعدلى وقصر النيل وما يجاورها ويتفرع عنها حيث لا نجد إلا تجارة التجزئة الكثيفة المضطربة بالحياة والحركة. وبينما يظهر التخصص في خط

واحد بحسب الشوارع أو المناطق في حالة تجارة الجملة، يغلب على تجارة التجزئة الطابع المختلط عمومًا، والذي يصل إلى مداه في المحلات الكبرى المنوعة multiple stores مثل شيكورييل وهانو وجاتينيو.. الخ، وتلتصق وثيقًا بعين المنطقة نصًا.

من أهم الخصائص بعد هذا، الفصل الجغرافي بين محلات التجارة العصرية والقديمة التي تختلف أيضًا في روادها، فالأولى أكثر ارتباطًا بجمهور العاصمة نفسها أولاً وبطبقاته الأكثر غنى ثانيًا، بينما يكثر في زبائن الأخيرة أبناء إقليم المدينة من الريف المجاور أو البعيد إلى جانب الطبقات القاهرية الشعبية. فالقطاع الغربي من منطقتنا تستأثر به التجارة العصرية، بينما تتراجع القديمة إلى القطاع الشرقي ابتداءً من العتبة تقريبًا. فهناك تسود المحلات الشعبية والتقليدية ويتحول السوق إلى «سويقات»، وقد يخرج من المحل إلى الرصيف ومن الرصيف إلى المتجول. كذلك يكثر التخصص بالشوارع ويزداد دور الجملة، كما نرى في محلات المصنوعات الجلدية والأحذية والصيني على نواصي العتبة، وكتجارة الذهب

والصياغة في الموسيقى والصاغة، والأقمشة الخشنة وغزل
الأنوال الريفية في شارع الأزهر، والعطارة في الغورية..
الخ

تلك هي تجارة القاهرة المركزية، التي يتعدى إشعاعها
حدود العاصمة، ولكنها مع ذلك لا تحتكر كل نشاطها.
فهناك التجارة الثانوية أو المراكز الثانوية أو تجارة
الأحياء التي تظهر في مفارق الطرق الاستراتيجية في
أغلب الأحياء كنسخ مصغرة محلية - كأنها الأقمار في
فلك شمس - من منطقة التجارة المركزية، التي تخرج
منها كالأشعة في الواقع السنة ممتدة على طول الشوارع
الرئيسية في المدينة تحتل المحلات التجارية جوانبها
وواجهاتها، حتى إذا تجمعت في مفارق الطرق بعيداً عن
قلب المدينة برزت من تلاحمها وتكاثفها تلك المراكز
الثانوية التي تخدم الأحياء.

ومع ذلك تبقى الدرجة الثالثة من التجارة، وهي آلاف
المحلات الصغيرة المبعثرة في كل شوارع وأزوايا
ونواصي الجيزة والأحياء السكنية، والتي يتحدد توزيعها

عادة بحسب كثافة السكان، مثلما يتحدد مستواها بحسب الحالة الطبقيّة. وعادة ما تمثل هذه مشكلة في مناطق الهوامش والأطراف من المدينة حديثة النمو كالعجوزة الآن، فظهورها يتخلف عن ظهور السكن الجديد أو لا يظهر منها أولاً إلا محلات الضروريات كالبقالة والتموين، وتظل المنطقة خاماً تعاني من نقص الخدمة التجارية حتى تزداد كثافة السكان وتتداعى سائر الخدمات التجارية الأكثر رقيّاً وترفيهاً.



من الوظيفة التجارية تنتقل منطقياً إلى الإدارية. كعاصمة سياسية، لها شهرة تقليدية بمركزية بيروقراطية ثقيلة، تلعب الإدارة دوراً هاماً في حياة القاهرة. ويكفى أن أكثر من ثلث هيئة موظفي الدولة يتركز فيها. والوظيفة الإدارية تتداعى مؤسساتها بالطبع، وتميل إلى التجمع الجغرافي، كما أنها تحتاج إلى موقع مركزي دون أن يكون بالضرورة في صميم القلب المزدهم الصاخب. من هنا، وعلى ضلوع منطقة التجارة المركزية ناهية

الجنوب والجنوب الغربي، تمتد رقعة دولة الإدارة وتتابع
أجهزتها كأنها قشلاقات جيش الموظفين. فابتداء من
ميدان التحرير، الذى يقف مجمه الشاهق ليعلن كنصب
تذكارى عن حدود تلك الدولة، وفيما بين شارع القصر
العينى وخط حديد حلوان، يمتد لنحو الميل حى الوزارات
والبرلمان بلا انقطاع، ككتلة بالجملة أو كحجر واحد، بل
وتطفو خارجها طفوح النمو والربح المركب، حتى تصل
عبر ميدان لاظوغلى إلى ميدان الجمهورية حيث كانت
قاعدة الحكم طويلا.

ويلاحظ أنه يرتبط بهذه الكتلة ارتباطا صمياً
ومباشراً، وظيفياً وجغرافياً، شريحة مميزة بكاملها على
الجانب الآخر من شارع القصر العينى من السفارات
والقنصليات، تتمثل فى قصر الدوبارة وجاردن سيتى التى
تتصل بها مباني الخارجية والجامعة العربية المترابطة أيضاً.
هنا دولة السلك السياسى الأجنبى الذى يحتاج إلى أن
يتعامل مباشرة. وفوراً مع دولة الموظفين المجاورة. وقديماً،
وفى العصر الاستعماري، فلعل الكلمة الدارجة «ما بين
لاظوغلى وقصر الدوبارة» كانت تعبر عن علاقة أكثر

من عابرة. على أن هذه الشريحة إنما ترتبط بالوظيفة الإدارية السياسية ارتباطاً جزئياً، ولكنها أساساً منطقة سكنية وليست من القلب الإدارى.

* * *

العاصمة بعد هذا هى عاصمة الصناعة المصرية أيضاً، ففيها أكبر حشد للصناعة فى البلد. وإذا كانت الصناعة الحديثة طفرة جديدة نسبياً فى وظائف القاهرة، فهى منذ القدم مركز تليد للصناعة القديمة والمحلية التى تراجعت الآن كثيراً جداً فى أهميتها لتترك الصدارة المطلقة للأولى. وهذه التفرقة هى نفسها مفتاحنا للتمييز وظيفياً وجغرافياً بين الصناعة الخفيفة والثقيلة، بين الصناعات البسيطة واليدوية والصغيرة والتقليدية وبين الصناعات الحديثة والمعقدة والآلية. فالصناعة الثقيلة ليس لها مكان إلا على أطراف المدينة، أما الخفيفة بكل أنواعها فتقوم فى داخلها ولكن بعيداً عن قلبها التجارى.

على أننا هنا نستعمل الثقيلة والخفيفة استعمالاً نسبياً خاصاً فيه قدر من تجاوز. فلعل من الخير ومن المقبول لأغراضنا وفى إطار المدينة المحلى الضيق ان نطلق الأولى

على الصناعات الأكثر أهمية وحجماً أو وزناً في اقتصاد أو لاندسيب المدينة، والثانية على الأقل خطراً ومقيناساً أو ثقلاً. وهذا مع العلم بأنه لا صناعة ثقيلة بالمعنى الصحيح في القاهرة إلا صناعة الحديد والصلب في حلوان.

فمن الخفيفة نجد بخليّة قديمة من الورش والمصانع الصغيرة والمعامل التقليدية في بولاق والسبتية، ترتبط غالباً بالحداثة والسبكّة وتصليح وتجميع الآلات والمراكب ووابورات السكة الحديدية، وتعتمد أحياناً على الخردة التي لها سوق تقليدية فيها (وكالة البلح)، كما تعمل في الصباغة والنسيج على نطاق صغير لعله امتداد أو بقايا لنشاط واسع عرفته المنطقة في القرن الماضي أيام محمد علي حين استمدت «المبيضة» اسمها من صناعة تبييض الأقمشة.

وعلى الجانب الآخر الشرقي من المدينة خلف الموسكى والغورية وباب الخلق حتى السيدة زينب، في الجمالية والدرب الأحمر، منطقة أخرى واسعة تنتشر فيها ورش الحرفيين والصناعات الصغيرة المتنوعة التقليدية والحديثة التي تتراوح بين معامل الغزل المتوسطة

وصناعات الأغذية وتعليب الفواكه وفابريقات تعبئة المياه الغازية والزجاج والنجارة والمصنوعات الجلدية والحياكة والتطريز والطباعة والتجليد وسائر الصناعات الاستهلاكية. ومن هذه الوحدات ما يقوم في بنايات أنشئت خصيصاً للصناعة، أو في شقق أو بدرومات المساكن العادية، وبعضها لا يخضع للمواصفات والمقاييس الدقيقة للصناعة، وبعضها نصف إلى نصف يدوي، ومنها ما ينتج لحساب الجملة وما ينتج للزبائن الأفراد من الجمهور..

ومعنى هذا أن هذه الصناعات الخفيفة، التي لا تحتاج إلى رموس أموال أو عمال أو خامات ضخمة أو مساحات شاسعة، ويمكن لمضايقاتها من ضوضاء ونفايات أو روائح أن تحتل نسبياً، هي وظيفة تختلط بالوظيفة السكنية وليست متعزلة عنها. ولكنها من الناحية الأخرى لا يمكن أن تقوم - وما قامت هنا - إلا في تضاعيف أحياء سكنية فقيرة أو شعبية، ووجودها نفسه بين ظهرانيتها وأخند من عوامل خفض درجتها السكنية، غير أنها في النهاية من

أهم مصادر الدخل والعمل للسكان، فمن بين صفوفهم
تستمد كل قوتها العاملة.

وأخيراً فإن تركّز هذه الصناعات المتنوعة هنا بكثافة
لمموسة هو في الحقيقة استمرار لتوطن صناعي تقليدي
قديم هنا. ففي هذه القطاعات العتيقة من شرق المدينة
كان القلب الصناعي للقاهرة الوسيطة، بتنظيماتها
ونقاباتها وأسطواناتها. وصناعاتها اليوم تستمد بعضاً من
مسحة وخصائص صناعات الأمس، إما متطورة أو
متدهورة نوعاً، وإن كانت لا تبدى التخصص الجغرافي
الذي كان يسود قديماً حين كانت كل صناعة - على
طريقة العصور الوسطى - ترتبط بشوارع أو حارات
معينة لا زالت مقروءة حتى اليوم في الأسماء وإن زالت
من اللاندسكيب. من هذه الأسماء - التي لم تعد اسماً
على مسمى بالضرورة - السروجية والسيوفية وسوق
السلاح حول القلعة، ثم المغربلين والكحكيين والفحاميين
والنحاسين... الخ.

فإذا انتقلنا الآن إلى الصناعة الثقيلة (تجاوزاً أو

نسبيًا)، التي هي أحدث جدًا من الناحية التاريخية، فإنما نتقل من وسط جسم المدينة إلى أقاصى أطرافها والهوامش. فالصناعة الثقيلة وظيفه هامشية جدًا بالضرورة، تقذف بها عوامل الطرد المركزية إلى حواف المجمع، بل على انفصال فيزيقى عنه إن أمكن، بينما لا تجد هي نفسها أى فائدة أو منطق في السعى إلى داخله.

وإذا كانت هذه الصناعات حديثة تاريخيًا وعصرية تكنولوجيا، فثمة قبلها بعض خطوط قديمة بدائية ومحلية بالضرورة تبدى على قلة أهميتها تركيزات جغرافية صارمة بل وترتبط حتى بمعطيات الموضع نفسه وتنزل بصرامة عن جسم المدينة. ولعل المثل الكلاسيكى هو صناعة التحجير والجير والطوب. فمحاجر القاهرة وجاراتها مركزة كلها بالضرورة فى الجنوب الشرقى فى جبل المقطم أساسًا، حيث تتابع عشرات وعشرات منها فى نطاق واضح، ينحصر بين كنتورى ١٠٠ - ٨٠ مترا فى الشرق، ٦٥ - ٣٥ مترا فى الغرب، ويمتد من مشارف الجبل الأحمر

! حتى نهاية الخليفة، كما يتناثر عدد منها في طول عين
الصيرة وبطن البقرة غير بعيد عن مصر القديمة التي
تعرف نشاطاً هاماً في صناعة وتجارة الجير والجبس. وليس
من الصدفة أن كثيراً من مباني شرق القاهرة هي من
الحجر أكثر منها من الطوب، وعلى النقيض تماماً من
المحاجر التي ترتبط بالجبل، ترتبط القمائن وصناعة
الطوب بالجزر النيلية وطميها. فجزيرة الذهب غابة من
المضارب، وهي المورد الأول للعاصمة.

وما دنا هنا في دائرة المحاجر، فقد يمكن أن نمضي
منطقياً إلى الجنوب، إلى طرة والمعصرة، لنجد استمراراً
وظيفياً، ولكن مع انقطاع جغرافي جزئي وتكنولوجيا تام،
للصناعة المرتبطة بالمحاجر. فمنذ أوائل القرن قامت هنا
وحدات عصرية وعلى أضخم نطاق لصناعة الأسمنت
والجير، طمرت في العقود والسنين الأخيرة لتصبح أعظم
صرح في هذا الخط لا على مستوى الجمهورية وإنما على
مستوى القارة، يغطي إنتاجه الاستهلاك القومي ويجد
فائضاً هاماً للتصدير. والوحدتان اللتان تستوعبان بضعة

آلاف من الأيدي العاملة واللذان تعدان بمقياسها وطبيعة منتجاتها من أثقل الصناعات، هما في الحقيقة مستعمرتان ضخمتان من التخصص المطلق بالضرورة الحتمية، منفصلتان جغرافيا عن جسم العاصمة تمامًا، ولكنها تدخلان في صميم وشقوق كل نسيج فيه.

غير أننا في الحقيقة إذا قلنا الصناعة الثقيلة فقد قلنا شبرا في الشمال، وحلوان في الجنوب. هاتان قطبا الصناعة الثقيلة، وأعظم منطقتين صناعيتين منفردتين في مصر عمومًا، وتبلغ قيمة رأس المال الذي وضع في صرح كل منهما الآن بضعة مئات من الملايين من الجنيهات.

والقطب الشمالى أقدمها، بدأ بمضاربات الرأسمالية والبورجوازية الأجنبية والتمصرة والمصرية إبان الحرب الثانية للكسب الاستغلالى السريع والصريح فى صناعات الغزل والنسيج والتريكو والجوارب خاصة والقطنية أساسًا، فى مصانع متهالكة وفى خطة عشوائية وفى ظروف عمالية سيئة. ولكن النواة التى بدأت منفصلة جغرافيًا فى شبرا الخيمة نمت قبل التأميم ثم طفرت بعده حتى

توسعت زحفاً: إلى الشمال حتى تخطت حدود القليوبية وضواحي مصر، وإلى الجنوب عبر شبرا المظلات وشبرا البلد حتى شارفت حدائق شبرا والتحمت بالسكن وتداخلت فيه. كما انتقلت بعد ذلك من القطنيات إلى الصوفيات والحريريات والبلاستيك والنايلون، كما نمت لنفسها صناعات تكميلية مساعدة من المعدنيات والاطارات.. الخ، لتؤلف منطقة صناعية متنوعة ومتكاملة أفقياً ورأسياً بمعنى الكلمة.

وبقوة هذا القطب الصناعي، انبثقت أخيراً نويات صناعية أحدث على طول التريعة الاسماعيلية وشارع بورسعيد، زحفت حتى مسطرد، وترتبط بصناعات تعبئة الغاز والكأوتشوك.. الخ.. ومن قبل قفزت حول ذلك القطب مستعمرات عمالية غير مخططة ومدن العشش والصفيح لا زالت دون المستوى كثيراً وتمثل خلية من التزاحم الخطير، تجمع في محيطها بضع مئات من الآلاف من العمال وأسراتهم.

هذا، وقد ظهرت لهذه المنطقة الصناعية الأم نوية

حديثه متواضعة وزنا وحجبا ولكنها تناظرها عبر النهر في شمال الضفة الغربية في امبابة، تدور أساسا حول النسيج والصناعات القطنية والتريكو والجوارب، تخلقت حولها هي الاخرى مستعمرة عمالية - مدينة العمال بامبابة - الا انها مخططة هندسيا على نمط مستطيل. وقد تقاطرت بجوارها أخيرا محطات القوى والمياه... الخ

والآن، ومن وجهة جغرافية المدينة، فلا شك أن منطق توقيع هذه المناطق الصناعية الغلبة يدعو الى التساؤل. لسببين أساسيين :

أولهما : أنها تقوم في صميم الأرض الزراعية الثمينة، فهي وإن نقلت بالتحويل المهني عشرات الآلاف من الفلاحين إلى عمال فقد عقت الآلاف من أجود الأراضي، كما أصبحت نفاياتها مصدر تلوث خطير لمياه المصارف والترع.

والسبب الثاني : أن هذا الموقع الشمالى يأتي على النقيض تماماً من كل منطق التخطيط في بلد تسوده الرياح الشمالية وتطلب لذاتها كتيار منعش شتاء ملطف

صيفا (البحرى). فهي تلقى بكل دخانها وإفرازاتها على سماء المدينة إلى الجنوب. ولعل هذا وحده أن يفسر كيف خفضت القيمة السكنية لتخومها المباشرة ولماذا سادت السكنى المتوسطة والفقيرة وأحياء العمال في القطاع الشمالى من المدينة هنا في شبرا وروض الفرج، والساحل في وقت كان يمكن فيه أن يستقطب السكن الراقى باجتماع الواجهة الشمالية مع الجبهة المائية على النيل.

غير أنه ما من شك أن الذى يفسر هذا التوقيع الخطأى سكنياً هو الميزة الموقعية الاقتصادية، فهنا في الشمال تتصل العاصمة مباشرة أسهل وأسرع اتصال مع كتلة الدلتا الغنية بمصدر خامها وغذائها الأول وممر التصدير والاستيراد الخارجى. لقد تغلبت مصالح الإنتاج على السكن، ومصالح صاحب رأس المال (قبل التأمين) على صاحب العقار.

وإذ تنتقل إلى حلوان - القطب الجنوبى - نجد المسرح مختلفا والقصة أحدث بكثير. فهنا ومنذ عقد

تقريباً غزت الصناعة الثقيلة ضاحية خارجية منفصلة، سكنية سياحية، ترقد هادئة حول عيونها المعدنية كمدينة من مدن المياه Spa town، لترتفع الأفران العالية إلى جانب يناييعها المعدنية. هذه أول قلعة لصناعة الحديد والصلب، قاعدة الصناعات جميعاً، بدأت على خام أسوا والنقل النهري وتتحول إلى خام الواحات البحرية والخط الحديدى. ففي أحضان وادى حوف زرعت غابة من المصانع والمداخن والأفران تتراعى لبضعة أميال وتعمل على خط انتاج واحد كسير متحرك، لتنتج القضبان والعربات الحديدية والفلنكات والآلات المعدنية وقطع الغيار وأسياخ التسليح، عدا صناعة السيارات تصنيعاً وتجميعاً، وعدا الصناعات الحربية والأدوات المنزلية الحديثة... الخ

والعملية هنا انقلاب عمرانى كامل بقدر ما هي انقلاب اقتصادى. فأمام حلوان الآن نمو سكانى ومدى ضخمة، ومن المحتمل أن تنمو حتى تتقابل أو تتقارب مع حدود كتلة القاهرة المبنية^(١) مثلما دخلت الآن أكثر من

أى وقت مضى فى فلكها الاقتصادى، وإذا كان التوقيع الصناعى هنا سلباً من وجهة مناخ القاهرة، فإن مستقبل مدينة الاستشفاء والعيون يصعب التنبؤ به فى قلب هذه الدوامة الصناعية الثقيلة. ولكن المحقق على أية حال أن ليس ثمة مبرر جغرافى طاغ أو واضح لذلك التوقيع أصلاً، إلا أن يكون القرب من مجمع العاصمة، الأمر الذى يعود بنا إلى قضية إفراط المترزبوليتانية عموماً.

من وظائف الإنتاج ندلف إلى وظائف الخدمات، وأولها التعليم. وللوظيفة التعليمية فى القاهرة دور خاص إن لم يكن فريداً حقاً، إذ أن جمهورها من الطلبة يقدر بنحو المليون أى خمس السكان، ولا مفر لذلك من أن تبرز مؤسساتها بالحاح فى لاندسكيب المدينة. والقاعدة الأصولية أن هذه توزيعها الجغرافى يتناسب مع درجتها التعليمية، بحيث تكاد شبكتها ترسم هيكلًا عنقودياً أو شجريًا أو هرميًا كنظام كريستالر عن توزيع المدن نفسها فى الإقليم. فمدارس الصغار - وهى أساساً خدمات جيرة - أشدها انتشاراً وانتشاراً، وتوزيعها سكنى بحت

أى يرتبط بالأحياء السكنية. أما المدارس الثانوية
فخدمات أحياء أكثر منها خدمات جيرة ضيقة، وهى
لذلك أقل عددًا وأكثر تباعدًا، ولكنها سكنية أيضًا
بالضرورة..

وإذا كان ثمة استثناء للقاعدة فهو الاستثناء الذى
يؤكددها، وهو التعليم الأجنبى. فمدارس الجاليات
والارساليات الأجنبية كلها تتقاطر (أو كانت) على قلب
العاصمة التجارى، فهى - كروادها - أدنى إلى المسحة
التجارية وأشبه أن تكون عناصر مقتلعة، مثال ذلك
المدرسة اليونانية والألمانية والفرنسية قرب الفلكى (وربما
أضفنا تجاوزاً الجامعة الأمريكية غير بعيد) ومدرسة
الإرسالية الأمريكية قرب حديقة الأزيكية. الخ أما
التعليم العالى فهو وحده الذى يبدى تركيزاً جغرافياً
حاسماً أولاً، وانفصالاً مطلقاً عن السكن ثانياً، وارتباطاً
حتمياً بأطراف المدينة ثالثاً، وبأطرافها الحديثة الراقية
العصرية رابعاً. ذلك أن الجامعة تحتاج إلى مساحات
شاسعة - تتزايد أبداً - مثلاً تحتاج إلى الهدوء المطلق.

وهذا يتجسم في ترامى جامعة القاهرة في الجزيرة الحديثة على مدى ما بين كوبرى الجامعة وكوبرى الجزيرة وبعمر كبير، ثم في انتشار جامعة عين شمس من الزعفران إلى العباسية. وكل منها - يلاحظ - على ضلوع العاصمة غرباً وشرقاً، كأنها قطبان إلا أنها قطبان متنافران موقعاً مع قطبي الصناعة في الشمال والجنوب.

وتمثل جامعة الأزهر توقيماً مختلفاً، فصحيح أنها على ضلوع المدينة بل وفي حوض الجبل من الشرق تواء، ولكنها في أقدم قطاع في المدينة. ولكن هذا مفهوم لعراقتها التاريخية إلى جانب نوعيتها الدينية. غير أنها تدفع ثمن هذه النشأة وذلك الموقع عجزاً عن التوسع المساحى في وسط ذلك الحي الشعبى المكتظ، الذى يضافى عليها أيضاً جواً وطابعاً خاصاً. ولهذا فقد بدأت أخيراً تتوسع بمعاهدها ومدنها السكنية تجاه العباسية بعيداً في مدينة نصر.

ومن الطريف هنا أن نلاحظ الاتجاه التاريخى فى الحركة من الجامعات الدينية القديمة إلى الجامعات

العلمانية الحديثة. فالانتقال الحضارى الذى حدث خلال القرن الأخير من التعليم الدينى التقليدى إلى التعليم المدنى العصرى يلخصه ويرمز إليه الانتقال من جامعة الأزهر إلى جامعة القاهرة، من أقصى شرق المدينة المرتفعة العتيقة الفقيرة إلى أقصى غربها السهل المحدث الغنى. وأطرف منه أن نلاحظ مرحلة انتقال بينهما، تتوسط المدينة عبر هذا القوس جغرافياً واجتماعياً كما تتوسطه تعليمياً، وتتمثل فى مجموعة دار العلوم ومعهد التربية العالى والمعاهد المجاورة والمماثلة فى منطقة المنيرة «وذلك قبل ضمها أخيراً إلى الجامعات الحديثة، حركة بندول كاملة نحو التغريب حضارة ونحو الغرب موقعا»

هذا، ويختلف التعليم الفنى فى توقيعه، فهو عادة -وبأنواعه المختلفة - يرتبط بمواقع المهنة نفسها أو الأحياء المعنية. فعادة تقوم المدارس والمعاهد الصناعية قرب الأحياء الصناعية، مثلما يتبلور فى سلسلة مترابطة من المدارس الفنية الصناعية وورشها فى بولاق ترسانة الصناعة التقليدية قديما (مدارس الصناعات الزخرفية

والميكانيكية سابقا، ورشة القطن.. الخ). ويمكن في معنى خاص ان نمد هذه القاعدة الى بعض مؤسسات التعليم الجامعي الطبي بحسبان المستشفيات الجامعية تعليميا وممارسة معاً. فمن أدعى الظواهرات لفتاً للنظر تلك الكوكبة العديدة والمتلاصقة من المستشفيات الجامعية لكلية الطب ومعامل الأبحاث، التي تتركز في شمال الروضة وعلى طول القصر العيني من كوبرى النيل إلى فم الخليج، والتي تحدد قدرها فيما يبدو منذ بدأ القصر العيني أيام كلوت. فهذه الدائرة الملمومة لا يمكن إلا أن ترتبط في الذهن على الفور، كما هي في الواقع، بأكبر تجمع في الجمهورية للأطباء والعيادات الطبية في دائرة باب اللوق وما حولها، وليس يفصل بينها إلا شارع القصر العيني نفسه.



ثم تنتقل إلى وظيفة تعد - عكس التعليمية - مناقضة ومضادة للسكنية إلى حد كبير، وهي الصحية. فالمستشفيات بمساحاتها الكبيرة وحاجتها إلى الهدوء

وبأخطار العدوى، لا مكان لها وسط كتلة السكان عموماً
وإذا كان بوسط القاهرة عدد من المستشفيات المركزية،
فالموقع السائد والمفضل غالباً والمحتم أحياناً هو
الأطراف، وربما الأطراف المنعزلة تماماً، وقد نضيف: في
منصرف الرياح كما في العجوزة ومستشفاهها العام الكبير،
وكما في العباسية حيث مستعمرة كاملة من المستشفيات
العقلية والحميات والصدرية فضلاً عن كورنتينة بيطرية
ومعمل السيرم (قارن على العكس مستشفى الحميات في
شمال امبابة).

وترتبط المدافن، من زاوية معينة، بالوظيفة الصحية،
فتصدق شروطها على توقيعتها بصورة أشد صرامة.
وجنوب شرق القاهرة في منصرف الرياح، عالياً على
التل المكشوف، بعيداً عن الطين في الرمل الجاف،
منفصلاً عن جسم المدينة، هو مدينة الأموات. والواقع أن
سلسلة الجبانات، من الغفير شمالاً حتى الإمام الشافعي
جنوباً، تؤلف نطاقاً متصلاً تقريباً ينحصر بين نطاق
المحاجر والجيارات شرقاً وبين سلسلة التلول المتقدمة

غرباً «قطع المرأة، زينهم، عين الصيرة»، التى بدورها تشكل نطاقاً متقطعاً يعزلها ويعزله عن السكن.

ومع ذلك ففى الإمام الشافعى أخذ الحى يزحف على الميت ويكاد يطارده، وتداخلت مدينة الأحياء مع مدينة الموتى بصورة قابضة للنفوس. وإذا كانت مدينة المقابر المقسمة بالشوارع الخطية التى تحمل أسماء وأرقاماً، تبدو كأنها المدينة السكنية للموتى، فالطريف أن العزل فيها على الأساس الدينى والجنسى أكثر صرامة بكل تأكيد عنه فى مدينة الأحياء، فلكل طائفة جباناتها الخاصة المطلقة.

تبقى أخيراً بعض وظائف تتشابه مع الصحية فى طبيعتها الهامشية، إلا أنها لا تبدو كذلك دائماً فى القاهرة. فالمؤسسات الترفيهية - الرياضية منها - كالملاعب والأندية الكبرى هى بطبيعتها مسرفة فى حاجاتها من المساحة وتختنق بغير الهواء الطلق والأماكن المكشوفة. ولأن جمهورها - فى ظل المستوى الحضارى والاجتماعى الراهن - ما زال محصوراً غالباً فى الطبقات القادرة،

فهي تجنب عادة إلى أن تقع في القطاعات الراقية من
الأطراف. اعتبر مثلاً نادى الصيد خلف الدقى، والزمالك
والترسانة في مداخل العجوزة، واستاد القاهرة في مدينة
نصر، ثم نادى سباق الخيل والبولو في مصر الجديدة..
الخ

ولقد نطن أن هذا يصدق أيضاً على نادى الجزيرة
والاهلى اللذين يحتلان نصف الجزيرة الجنوبي ويمثلان معاً
أكبر رقعة رياضية متصلة في العاصمة.. ولكن الحقيقة أن
هذا الموقع أقرب شىء إلى قلب المدينة، وموقعه هنا إنما
يمثل حالة شاذة من عدم التلاؤم ومن الجنود
anachronism من وجهة ديناميات نمو المدن. وهذا نقد قد
يثير حساسيات عاطفية عند الكثيرين، ولكنه يفهم عسى
ضوء الماضى. فقد أنشأ الاستعمار البريطانى هذه الحلبة
لتكون حكرًا أرستقراطياً له أولاً، وحين أنشأها في العقود
الأولى من القرن لم تكن الضفة الغربية تتعدى بالكاد
بندر الجيزة، وكان هذا الموقع هو بالفعل أطراف مدينة
القاهرة الهامشية. ولكن نمو القاهرة عامة والضفة الغربية

خاصة سرعان ما غمره في مده واحتواه حتى أصبح الآن قريباً جداً من قلب المدينة. وهناك أدلة متزايدة على أنه قد بدأ بالفعل يعرقل النمو الطبيعي لهذا القلب، كما أن تدفق رواده عامل اضطراب موسمي خطير في مواصلات العاصمة. والأسوأ من هذا أنه يعقم الاستغلال الأمثل لرقعة هائلة ذات قيمة عقارية لا تقدر في موقع ممتاز من المدينة المتفجرة بالنمو. فكل أصابع التخطيط الرشيد تشير إليه أما كمنطقة سكن راق أو كسكن تجارى عالمي (فنادق سياحية الخ) أو كخلية ومجمع للقاعات الدولية وصالات المؤتمرات والمعارض العالمية السخ. والمنطق التخطيطي يقضى بأن يهاجر إلى الهوامش الجديدة، مثلاً كمنطقة نادى الصيد. أما القول بأن هذا يحرم القاهرة من «رئة» طبيعية أو يضاعف مشكلة كثافة السكان، فليس ردًا، لأن النيل بشعبتيه هنا هو الرئة الطبيعية الكاملة، والحاجة إلى رئة إنما تزداد كلما بعدنا عن النهر خاصة في أعماق الضفة الشرقية المكتظة. ثم أن الزمالك والروضة مناطق مبنية ولم تختق أحداً. وفوق هذا كله، فما نعرف عاصمة كبرى في العالم تتوسطها جزر نهريّة^١

دون أن تستغلها أكثف وأمثل استغلال عمراني : مثلاً
السيّتي في باريس، ما نهاتن في نيويورك.

* * *

مثل هذا أو شيء منه يمكن أن يقال عن الوظيفة
الحربية ومؤسساتها في القاهرة، فمنذ العصور الوسطى
وطوال تاريخ القلعة مثلاً، وللدفاع مدينته الكاملة المطلقة
(بشكّاتها ومخازنها بل ومصانع سلاحها) التي تقع كلية
خارج المدينة وعلى ضلوعها الشرقية، مصدر الخطر
الخارجي الأساسي. (على العكس من هذا تماماً في ظل
الاستعمار، كانت هذه المدينة العسكرية في صميم قلب
المدينة، قصر النيل، استجابة لا لأغراض الدفاع
الخارجي ولكن لأغراض الاحتلال الداخلي) وانتقال
موقع وظيفة الدفاع من جنوب شرق القاهرة (القلعة)
إلى شمالها الشرقي (العباسية - القبة) يرمز إلى تطور
الفن العسكري.

ولا شك أن الموقع الأخير، الحالي، هو عنق زجاجة
القاهرة ومدخلها الاستراتيجي الأخطر. غير أن القصة

هنا تكرر مشكلة تراجع المواقع الهامشية مع نمو المدينة، فقد احتوى المد العمراني المدينة العسكرية - على ترامى رقعتها - إلى أن فقدت هامشيتها الشرطية بتجاوز العمران السكنى والمدنى لها شرقا نحو الصحراء. وإذا كان هذا عنصر تعويق فى نمو المدينة، فهو أشد تعويقا للوظيفة الحربية نفسها. ولقد نضجت المشكلة - التى واجهتها عواصم أخرى كثيرة - بما يسمح بإعادة توقيتها ونقلها إلى الأطراف الجديدة.

الطبوغرافيا الاجتماعية

لا تنفصم الوظيفة السكنية عن فكرة الطبوغرافيا الاجتماعية، إن لم ترأدها تقريريا. والطبوغرافيا الاجتماعية - والمصطلح للمخطط المهندس الفرنسى جاستون بارديه - هى أساسا التوزيع الجغرافى للطبقات الاجتماعية على أرضية المدينة. وإذا كانت المدينة الاشتراكية كالسوفيتية لا تعرف إلا التباين الجغرافى على أساس الإنتاج، بينما تتجانس فيها الأحياء السكنية

تمامًا، فإن طبوغرافيتنا الاجتماعية ليست بعد اشتراكية وإن كانت لمدينة عاصمة في دولة تتحول إلى الاشتراكية. فنحن هنا إزاء المحصلة التراكمية لتاريخ طويل من الإقطاع والرأسمالية، ولا مفر لنا لوقت طويل من أن نميز بين الأحياء السكنية على الأساس الطبقي اقتصاديًا واجتماعيًا. بل إن المسكن مازال هو التعبير المادى الأخير عن الطبقة والمنزل هو المنزلة، والمكان هو المكانة.

غير أن الطبوغرافيا الاجتماعية ليست الطبقة وحدها، بل والجنسية والطائفة أيضًا، أى الأقليات عمومًا، وهذه لها مكانها في عاصمة كوزموبوليتانية كالقاهرة، وسنجد لها جزرها وأسافينها الجغرافية الخاصة، على أن من الواضح تمامًا أن وزن الجنسية والطائفة ثانوى وضئيل للغاية بالقياس إلى الطبقة، فهذه وحدها هى أهم المتغيرات وأبرز المعالم فى الطبوغرافيا الاجتماعية لعاصمة قديمة عريقة لشعب موحد متجانس منذ آلاف السنين. وهذا على العكس تمامًا من مدينة كالمدينة الأمريكية تمتاز أساسًا، كمدينة بلا تاريخ

وكمدينة هجرة، بالتنافر الاثنولوجى وتعدد الأجناس والقوميات، وبأخذ فيها الجنس بعداً لا يقل خطراً عن الطبقة فى تشكيل مورفولوجيتها الاجتماعية.

مع هامش عريض من التبسيط والتعميم، يمكن أن نحصر الأحياء السكنية الفقيرة فى أقصى جنوب المدينة وأقصى شرقها ثم أقصى شمالها، مع جزيرة كبيرة فى وسطها. أقصى الجنوب: فى أجزاء من الجزيرة البندر، وأجزاء من مصر القديمة حتى السيدة زينب، مروراً بأبو السعود والمدابغ والمذبح والبغالة. أقصى الشرق: من الخليفة حتى الحسينية، مروراً بالقلعة والدرب الأحمر والجمالية. أقصى الشمال: فى أطراف شبرا الخيمة وشبرا البلد والساحل وما حولها وامتداداتها عبر مسطرد ومهمشة والشماشرجى، ثم إزاءها فى امبابة. أما جزيرة الوسط فكتلة بولاق والسبتية. وثمة أحياناً جيوب ثانوية على أطراف المنطقة المبنية فى الضفة الغربية من القرى المتلعة كبولاق الدكرور أو مدن العمال مثل بين السرايات.

هذه بوضوح هي إما أحياء شعبية قديمة التاريخ،
والمباني عتيقة الطرز، بعضها متهالك أو آيل للسقوط،
شوارعها بلا تخطيط أو عشوائية الخطّة، ترتفع فيها كثافة
المساكن بفضل أزقتها وحواريها الضيقة، كما ترتفع فيها
كثافة السكان وحجم الأسرة. أو هي أحياء عمالية
حديثة التاريخ ولكنها منخفضة المستوى وقد ترتبط
ببعض البورجوازية الصغيرة من صغار الموظفين أو
الحرفيين. وأوضح من ذلك كله أن السكن يختلط فيها
بدرجة أو بأخرى بالصناعة والتجارة كما رأينا. وهي
أخيرًا وفي أغلبها، ولكن ليس دائمًا تقوم على الأرض
المرتفعة ذات الكنتورات العالية.

وعلى طرف النقيض، تتوزع الأحياء السكنية الغنية،
بدرجاتها المتفاوتة، في معظم النطاق الأقرب إلى النهر من
الضفة الغربية شمال الجزيرة البندر، ثم في الجزء الأكبر
من جزيرة الروضة، ثم في الجزيرة (الزمالك) ثم نعب إلى
جاردن سيتي وقصر الدوبارة، لنقفز بعدها بعيدًا إلى مصر
الجديدة وأجزاء كثيرة من الشمال الشرقي ابتداء من
القبة. وأبرز ما يجمع بين هذه الأحياء جغرافيًا أنها

باستثناء مصر الجديدة وما حولها تقع في الأراضى
المنخفضة على جبهة النيل.

وفي الأعم الأغلب تقتصر هذه الأحياء على السكن،
فإن غزتها وظائف أخرى فبعض المؤسسات الإدارية
كالوزارات أو المصالح، ولكن بوجه أخص البعثات
الدبلوماسية، فهذه تتقاطر على أحياء السكن الراقى،
فنجد أغلب السفارات والمفوضيات والقنصليات تعيش
في جاردن سیتی وقصر الدوبارة فالزمالك فالدقى وحديثاً
وأخيراً العجوزة. على أن السفارات والهيئات
الدبلوماسية إذا عدت دليلاً على السكن الراقى، فهذا
يقتصر على الأحياء السكنية القريبة من قلب البلد
نسبياً، أما المتطوعة منها فتخلو منها، كمصر الجديدة.

أما اللاندسکيب المدنى السائد هنا فهو العمارات
العالية وأحيانا الناطحات الصغيرة، ودائماً في عمارة
عصرية حديثة. أما الفيلات فقليلة لشدة ارتفاع قيمة
أراضى البناء على الأرض السوداء حيث لا بد من الحد
الأقصى من الاستغلال بالكثافة الرأسية. وهنا نستطيع

أن نرى كيف أن «جاردن سیتی» مثلاً اسم على غير مسمى، بل وسخرية من فكرة «الجاردن سیتی» المعروفة في أوربا منذ هوارد، فهي غابة من العمارات الضخمة أكثر منها كوكبة من الفيلايلات في بحر من الحدائق، ولكن الفيلايلات تعود فتسود على الرمل في مصر الجديدة وضواحي الشمال الشرقي حيث تملك ترف الانسياح الأفقي.

أما السكان، فهذه هي المحل المختار للطبقات الموجهة والمسيطرة والأكثر دخولاً وترفيهًا وترفًا. وقد حدثت هنا منذ الثورة عملية «تتابع سكني» تغير فيها نوع السكان. فقد كانت هذه هي المواطن المفضلة لسكنى الأقليات الأوربية الاستعمارية، مثلما كانت المقر الطبيعي للأسر الإقطاعية والرأسمالية والصناعيين من الوطنيين. ومع تصفية هذا وذاك، حلت بالتدرج صفوف من الطبقة الوسطى العليا والمثقفة الوطنية، مما بدأ يخفف نوعًا من حدة تضاريس الطبوغرافيا الاجتماعية في العاصمة.

فيما بين النقيضين، الأحياء اليرقية الحال والغنية،

تنتشر أو تنحشر الأحياء المتوسطة التي يتفق أنها متوسطة في الموقع الجغرافي مثلما هي في الموقع الاجتماعي والتي تتألف غالباً من الطبقات الوسطى المعتدلة أو العادية من الموظفين والمثقفين أو التجار. فعدا الجانب الخلفي من الضفة الغربية، تغلب في قم الخليج وتسود في المنيرة وكل ما حولها وخلفها حتى حدود الأحياء المتواضعة في شرق المدينة، ثم تغلب على كل النطاق العرضي الممتد من الفجالة والظاهر وغمرة عبر السكاكني حتى الوايلي والعباسية ثم في قطاعات كبيرة من ضواحي الشمال الشرقي. هذا عدا القطاع الأكبر والجنوبي من شبرا وروض الفرج. ومن الملاحظ أن خطوط السكك الحديدية داخل المدينة، قومية كانت أو ضواحي، تخترق عادة هذه المناطق السكنية المتوسطة (أو الفقيرة) حيث تخلق على طولها مناطق موبوءة وتخفض قيمتها الاجتماعية.

ماذا تعني هذه الخريطة الاجتماعية، وهل من مغزى للعلاقات التوزيعية بين الطبقات الثلاث؟.

لعل أبرز ما يلاحظ هو أن مبدأ الفصل السكنى سائد بعامة، بمعنى أن لكل طبقة منطقة، ولكل منطقة طبقة. وأهم من ذلك أن الفصل السكنى سلمى، بمعنى أن الطبقات تتدرج من منطقة إلى أخرى كما تتدرج في السلم الاجتماعى. وبتفسير أوضح فإن منطقتى الطبقة الغنية ورقيقة الحال يندر أن تتجاورا متلاصقين، بل الأغلب أن تندفع بينهما منطقة طبقة وسطى تفصل بينهما، كما فى منتصف المدينة على محور جاردن سيقى - المنيرة - القلعة.

وقد تتقارب أو تتواجه هاتان الطبقتان مباشرة، بل إن هذا أحيانا مطلوب لأن القوة الضخمة العاملة فى الخدمة الشخصية والمنزلية فى إحداها تستمد من الأخرى، ولكن لا بد حينئذ من حاجز طبيعى فاصل، كالنيل بين الزمالك وبولاق حيث يتجسم التباين والتناقض الاجتماعى ويصل إلى قمته، وحيث تصل المسافة الاجتماعية إلى أقصاها والمسافة الجغرافية إلى أدناها، أو كما بين الروضة ومصر القديمة على مستوى أكثر اعتدالاً..

أما عن الضوابط الحاكمة والكامنة خلف هذه الصورة، فيمكن أن نتساءل أولاً عن عامل القرب أو البعد من قلب المدينة ففي كثير من المدن الأوربية والأمريكية أصبحت مسافة بعد السكن عن القلب مقياساً طردياً للمستوى الاجتماعي والانتباء الطبقي، كلما زادت ارتفاع، والعكس. ولكن القاهرة لا تحقق هذه القاعدة إلا جزئياً (مصر الجديدة، المعادي، وكل ضاحية منفصلة أو شبه منفصلة) وتعارضها أكثر (جناردين سيتي، والزمالك من ناحية، وامبابة وشبرا الخيمة ومصر القديمة من ناحية أخرى).

فإذا بحثنا عن احتمال آخر، كالأرض العالية والمنخفضة في المدن الغربية الباردة، حيث الأرض المنخفضة مصائد للضباب والرطوبة، والأرض العالية صحية جافة ومشرقة، وحيث - بالتالي - «العالى اجتماعياً هو العالى جغرافياً، والواطئ اجتماعياً هو الواطئ جغرافياً» وجدنا أنفسنا في القاهرة إزاء قلب رئيسى وإن يكن غير كامل للقاعدة فشرق المدينة

الأعلى تضاريسياً يحمل الأحياء الرقيقة الحال والعمالية
والشعبية، بينما غرب المدينة المنخفض على النيل وفي
جزره وعلى ضفته الغربية يحتشد السكن الغنى. ولكن
يعود فيشد قطاع كبير في بولاق والشمال (شبرا الخيمة
وما حولها وامبابة) فهذه كلها أراض منخفضة وأحياء
متواضعة.

هل هو إذن ضبط الرياح السائدة؟ فقد لوحظ في
الغرب أن السكن الراقى يسعى إلى أن يحتكر غرب
المدينة حيث مستقبل الرياح الغربية السائدة، طازجة
غير ملوثة. وفي مصر الحارة، فليس ثمة شك أن الرياح
البحرية السائدة مرغوبة جداً وأن لها ثمناً يدفع في قيم
الأرض أو الإيجار، وإن المدينة الاقليمية المصرية
المتوسطة تنجذب أحيائها السكنية الراقية إلى الشمال
كما تنجذب البوصلة المغنطيسية. ولكننا في القاهرة
نصطدم بشبرا الصناعية وامبابة وأحيائها المتواضعة في
أقصى الشمال، وإن كانت مصر الجديدة وضواحي
الشمال الشرقى مكشوفة للرياح «البحرى» منطلقة
بلا عائق.

لا يبقى إلا أن تكون جاذبية النهر، فللجبهة المائية المنعشة في مناخ حار، فضلاً عن المنظر الطبيعي في اللاندسكيب مغنطيسية لا مفر منها على السكن الراقى، ومن الواضح أن هذا يمثل جزءاً كبيراً من الحقيقة في القاهرة: اعتبر معظم الضفة الغربية ثم الجزيرتين، فجاردن سيتي، ومع ذلك فليس هو كل الحقيقة، حيث تقع بولاق وامبابة على النهر بينما تقع مصر الجديدة أبعد ما تكون عنه.. على أن هذا لا يقلل من أهمية عامل الجبهة المائية، فحتى داخل منطقة الطبقة الواحدة، راقية كانت أو متوسطة، يطل على النهر عادة أفضل المساكن وتقل درجتها كلما بعدنا عنه.. وفي الضفة الشرقية مثلاً ينخفض مستوى السكن كلما بعدنا عن النيل في انحدار مستمر من الراقى إلى المتوسط إلى الفقير، ولا نقول إلى سكن الموتى في أقصى الشرق!

والخلاصة الصافية؟ لا شك أن كل هذه العوامل نعمل مجتمعة ولكنها متعارضة جزئياً، وليس فيها مفتاح أحادى. والسبب أن القاهرة مدينة معقدة مركبة بحكم تاريخها الطويل وتنوع أرضيتها كموضع ما بين الجبل

والنهر وما بين الصحراء والوادي، ولكن من الممكن أن نقول إن ضابط الجبهة المائية فيها أقوى بعامة من عامل الرياح البحرية، وهذا بدوره أقوى من عامل التضاريس.

ذلك إذن وجه المجتمع القاهري في بيته الجغرافي أو بيئته الطبيعية. غير أنه إن حددت الطبقة ملامحه الأساسية، فإن الأقليات تكملها بلمسات نهائية ترصع صفحته دون أن تخرج عن الفرشة القاعدية. ولقد حدثت تغييرات هامة في العقد الأخير في حجم وتوزيع الأقليات الأجنبية والجاليات الأوربية نتيجة «للخروج الأبيض» مع التحرير، ولكنها ظلت طويلا قبلها ذات وزن كبير حيث بلغت عدة عشرات من الآلاف، وإن قد كانت دائماً أقل منها في الأسكندرية بالذات.

ففي مرحلة الأوج في الثلاثينات والأربعينات، كانت أبرز حقيقة عن توزيع الأوربيين في القاهرة تجمعهم في النصف الشمالي منها، أو بالأحرى غيابهم تماماً من النصف الجنوبي. وفي النصف الشمالي كان توزيعهم

أقرب إلى قلب المدينة، وكان مركز الثقل في جاردن سيتي وقصر الدوبارة وفي الاسماعيلية والتوفيقية، حيث كانت نسبتهم تزيد عن نصف السكان في كثير من الشياخات. وحول هاتين النواتين، وعدا الزمالك، كانت تجمعاتهم تستمر متصلة ابتداء من الفرنسيساوى حتى باب اللوق ومن غمرة حتى شبرا، وفي كثير من شياخات هذه الحلقة كانت نسبتهم تتراوح بين نصف وخمس السكان.

وأهم معانى هذا التوزيع هى :

أولاً : ميل طبيعى للأقليات والجاليات الأجنبية إلى التجمع وعدم الانتثار تماماً بين الوطنيين.

ثانياً : انجذاب (غير مألوف عند الوطنيين ولكنه منطقى للأجانب) نحو قلب المدينة التجارى حيث يربطون بين العمل والسكن أو حيث يظهر السكن التجارى (الفنادق والبنسيونات الخ).

ثالثاً : يتبع توزيع الأقليات الأجنبية الإطار الطبقي العام. فكانت العناصر الأكثر غنى ونفوذاً منهم ترتبط بالأحياء السكنية الراقية كجاردن سيتي والزمالك،

والعناصر الأقل مكانة بالأحياء البورجوازية المتوسطة، ولكنها في جميع الحالات كانت بعيدة تمامًا عن الأحياء الوطنية الفقيرة.

رابعًا: ارتبطت بعض الجاليات ببعض المناطق تقليديًا أو بصفة خاصة: الانجليز بجاردن سیتی والزمالك عدا المعادي المنفصلة، واليونانيون والطلبان واللفانتيون بمداخل شبرا تجاه المحطة (الشوام في قصورة الشوام خاصة).

خامسًا: وأخيرًا، فرغم بعض ملامح الانعزال النسبي عن الوطنيين، فلا مجال قط للحديث عن عزل سكني صارم بالمعنى المعروف في العواصم الاستعمارية في أفريقيا أو آسيا. بل إن بعضًا من العناصر الأقل ثراء من الأوربيين اندمج تمامًا في كتلة السكن الوطني، ومن الناحية الأخرى لم تظهر قط مدينة أوربية مقفلة بالمعنى الاستعماري وحتى الانجليز رغم السيطرة الاستعمارية وتقاليد العنجهية الأنجلوسكسونية تحايلا على العزل السكني المقنع من خلال الانفصال الجغرافي الطبيعي حين

نموا لأنفسهم ضاحية المعادى ولكنهم فشلوا، وغزتها
العناصر الوطنية. وهذا كله يذهب ليؤكد أن الفارق
الحضارى والجنسى بين الأوربيين والمصريين كان دائماً
على غير ما عرف الاستعمار فى كثير من بلاد العالم
الثالث، وإنه عجز عن أن يخلق فى مصر أى شبهة من
«حاجز لوني».

أما من الناحية الدينية، فقد كانت هذه الجاليات
الأوربية ذات التركزات غير العادية فى قلب المدينة أو
قربه تتخذ مؤسساتها الدينية فى ذلك القلب التجارى أو
قريباً منه، وذلك بصورة شاذة غير مألوفة، وليس فى
الأحياء السكنية كما هى القاعدة فى مؤسسات الديانات
الوطنية. وحتى بعد تصفية هذه الأقليات والجاليات،
فما زالت مؤسساتهم تحتشد فى ذلك الوسط التجارى؛
مثلاً كاتدرائية الإنجليز بماسبيرو، كاتدرائية سان جوزيف
بعماد الدين، عديد من الكنائس فى باب اللوق والفلكى
وكنيس الإسرائيليين فى شارع عدلى.. الخ.

هيكـل العاصـمة أقالـيم القاهـرة الكبـرى

من المسلم به أن القاهرة، بتاريخها الألفى العريق، مدينة ناضجة مورفولوجياً من وجهة جغرافية المدن، بمعنى أنها مرت بمراحل وأدوار عديدة من التجربة والخطأ، وإعادة التجربة والتصحيح، حتى استقرت واستوت خططها وبنيتها العامة على أنسب تنضيد وترتيب ممكن لبيتها من الداخل.

ومن هذه الزاوية، فالمفروض أن تكشف القاهرة لدارسها بسهولة عن هيكلها الاساسى وعن المخطوط العريضة في مورفولوجيتها. غير أن الواقع أن القاهرة مدينة معقدة نوعاً من حيث الموضع الجغرافى الذى يحتويها. فاختناقها بتلال المقطم فى الشرق منع بصرامة توسعها فى هذا الجانب وفرض على نموها اتجاهًا احاديًا أو قل نصفياً نحو الشمال والغرب أو الشمال الغربى،

وبذلك حد من حريتها في الانطلاق نحو النمط الدائري
وحصرها في نمط مروحى بالتقريب.

ونقول النمط الدائري لأنه باستثناءات ليست قليلة
الأهمية ومع تحفظات معينة فإن المدينة أى مدينة حين
تترك لنفسها في بيئة جغرافية سهلة تخلو من العقبات
الطبيعية فإنها في الأعم الأغلب تميل بالنظرية إلى أن
تنمو حول قلبها، كجذوع الأشجار، على شكل حلقات
متتابعة نحو الأطراف، وتكتسب محيطاً دائرياً أو شبه
ذلك. والسؤال هو: ما النمط، ما المنطق البنائى القائد أو
الحاكم الذى يمكن أن نستشفه من خلال وجه القاهرة
بعلامه وعناصره ووظائفه ودينامياته التى طالعنا وحللنا ؟

واضح أن سلسلة المقطم كانت بمثابة خط القاعدة
الذى ارتكزت عليه القاهرة في نموها، وبينما لم يعد
اجتيازها للنيل عقبة على الإطلاق، على الأقل منذ القرن
الماضى، فقد ظل محور المقطم منذ البداية إلى اليوم عقبة
طبيعية صارمة. ومن الناحية التاريخية، وعبر العصور
الوسطى، فإن أحضان المقطم المباشرة التى نشأت فيها

هى بطبيعة الحال «النواة النووية» للمدينة مثلما كانت قلبها المركزى فى مراحل طويلة من حياتها

وقد كان نمط توزيع الوظائف والمباني والسكان فى مدن العصور الوسطى، خاصة الإسلامية منها، بسيطاً فى جوهره يتركز - كما يلح علينا ديكنسون - حول السلطان: فكان مقر الحاكم عادة هو قلبها يحيط به قصور الأمراء والكبراء ثم التجار ثم العامة وصغار الناس حتى إذا وصلنا إلى هوامش المدينة ساد الزراع العاملون فى حقول المدينة وأرباضها.

وشىء من هذا توحى به القاهرة العربية الإسلامية. فدائماً منذ الفتح العربى وقبل أن تبنى القلعة فى الأيوبية ولكن بعدها بصورة أقطع، كان مقر الحكم لصيقاً أو يكاد بسفوح المقطم فى الشرق، ومن حوله كانت تترى أحياء الأعوان والمقربين وأهل الحكم ثم كبار التجار والحرفيين ثم العامة، بينما كانت بطائح وشطوط النيل التى ترصعها المستنقعات والبرك ويهددها خطر الاستبحار من فترة إلى أخرى منطقة الزراعات وتموين المدينة، وأحياناً ملاعب ومتنزهات.. الخ

وقد يمكن أن نعبر عن هذا فنياً بأن نقول إن غط القاهرة العربية المورفولوجي كان حلقياً، وإنما بالتقريب على شكل نصف دائرة قطرها خط المقطم. وربما أضفنا أن الهيكل العريض لهذه المورفولوجية يذكر - مع كل الفروق الموضوعية والتاريخية بالطبع - بهيكل مدينة شيكاغو المشهور في دراسات المدن، حيث يتركز القلب على جبهة بحيرية قاطعة وحيث يأخذ توزيع أقاليم المدينة الحلقية من الداخل نظاماً نصفياً وليس دائرياً كاملاً.

ولكن القاهرة اليوم أشد ما تكون تعقيداً بالمقارنة. فمنذ القرن الماضي أخذت المدينة تهجر ظلال المقطم وتزحف نحو النيل، وأخذ كثير من أجهزتها ومؤسساتها ووظائفها الحيوية تصرف بالتدريج من قلبها القديم في شرق المدينة وتهاجر بانتظام متدفقة نحو الغرب. ولقد بدأت هذه الأعراض مع محمد علي ولكنها تسارعت بعده منذ إسماعيل خاصة، ولم تكف منذئذ حتى الآن. مقر الحكم، مثلاً، كان القلعة أيام محمد علي، ولكنه هو نفسه

بدأ بشتل وزرع أجهزة إدارة جديدة وعديدة في منطقة الأوبكية، إلى أن نقل إسماعيل الحكم فيها نهائياً إلى عابدين. هذا مجرد مثال دال، ولكن كل تاريخ القاهرة الحديثة إنما هو عمليتان إيكولوجيتان رئيسيتان: من الخارج نمو وتوسع نحو الشمال والغرب، وإعادة توزيع وترتيب لأجهزتها وانسجبتها وأعضائها ووظائفها واستعمالات الأرض فيها من الداخل.

ولا شك أن أبرز المظاهر المؤثرة والملموسة لديناميكا القاهرة، كما تنبثق من تفاعل هاتين العمليتين، هي هجرة القلب التجارى المركزى. وهى نتيجة حتمية. فقلب أى مدينة هو فى الحقيقة «عاصمتها»، هو فى المدينة كالعاصمة فى الدولة تماماً. وكما أن هناك علاقة إيقاع غير منظورة ولكنها محققة بين حدود الدولة السياسية وبين العاصمة السياسية، ينبضان، معاً ويتأرجحان معاً، فكذلك قلب المدينة: يرتبط وثيقاً ويتذبذب حثيثاً مع حدود المنطقة المبنية، كلما اتسعت حدود هذه، كلما تحتم على القلب أن يتحرك معها ليؤمن مركزيته ويحتفظ بتوسطه. هكذا

القاهرة : كما نمت حدودها نحو الشمال والغرب أساساً،
نحو الشمال والغرب بالدقة تحرك قلبها.

ومن السهل ربما أن نتبع حركة القلب التاريخية هذه
من الأزهر والموسكى فى مطالع القرن، إلى العتبة
والأزبكية بعد ذلك، إلى الإسماعيلية خلال فترة الحرب
الثانية وما قبلها. وبمزيد من التحديد فقد كان كليرجيه فى
الثلاثينات يعد عين قلب القاهرة التجارى النابض حول
شارع عماد الدين. ومنذ ما بعد الحرب وصلت الحركة
إلى نقطة التقاء شارع ٢٦ يوليو وطلعت حرب (فؤاد
وسليمان سابقاً)، ومن بعدها انحدر الزحف على طول
شارع طلعت حرب وقصر النيل وتجاه ميدان التحرير
حتى شارقه، وحتى أصبح هذا من مراكز قلب القاهرة
وقطب الجاذبية فيها، حيث أخذت المؤسسات والأجهزة
والهيئات المختلفة من تجارية ومراكز خدمات وإدارات
وشركات وفنادق كبرى تتقاطر حوله، وأخذ هو يكتسب
صبغة أكثر وأكثر تجارية وحركية.

وكمقياس اختبار أو كرموز لهذه الحركة، اعتبرت

هجرة فندق شبرد من الأزيكية، والجامعة العربية من الداخل، إلى النيل، ثم قيام الهيلتون، ولا تنس قيام المجمع قبل الجميع. كذلك لاحظ زحف وانتقال منطقة الاضواء Bright Light Area (المسارح ودور السينما واللهو وشرقة المقاهى والمطاعم الكثيفة التى تغلفها.. الخ) من شارع عماد الدين فى الثلاثينات إلى شارع طلعت حرب الان..

لقد تمت دورة بندوق كاملة فى حياة المدينة وقلبها، انتقل فيها من سند الجبل إلى شاطئ النهر، ومن ضلوع المقطم إلى ضفاف النيل، وتلك نتيجة منطقية بالنسبة إلى قلب تحولت مدينته من مدينة اكروبوليس إلى مدينة فيضية، ومن موضع منحدر تلى الى موضع يمتطى نهرا ويضع قدماً فى الضفة وقدماً فى الاخرى حتى أصبح هذا هو محور المدينة الجديد.

ولا شك أن هذا الزحف الهادف إنما يتم فى جزء كبير منه تحت مغنطيسية وجذب النمو العمرانى الضخم، والمتفجر أخيراً، على الضفة الغربية بالذات وحيث ينتظر

المزيد من النمو والانسياح. وهو أيضًا يحقق النظرية
الأصولية من أن القلب يزحف نحو الأحياء السكنية
الراقية. كذلك فانه يدل على أن القلب برقعته المزدحمة
الحالية بدأ يكتظ ويضيق بمؤسساته وأجهزته الكثيفة
والمكدسة، وبمثل ما أن بعض هذه المؤسسات بدأت هي
الأخرى تضج وتضيق بضغطه وتسعى إلى أطرافه الأكثر
هدوءًا واتساعًا لأغراضها. خذ مثلاً دور الصحافة
الكبرى في القاهرة: تجد منذ مدة هذا الاتجاه إلى الابتعاد
عن عين القلب إلى هوامشه، ابتداءً من قيام دار أخبار
اليوم في شارع الصحافة، إلى انتقال الأهرام أخيراً جداً
إلى شارع الجلاء. ومن قبل يلاحظ الموقع الهامشي من
القلب في بقية دور الصحف: الجمهورية تجاه الأزبكية،
الشعب في القصر العيني، الهلال في المبتديان.. الخ. كذلك
مرافق الإدارة المركزية، لم يعد القلب الإداري يتسع
للمزيد منها وبدأ يلفظ نموه بعيداً، وأحياناً خارج القلب
تماماً، كوزارة الزراعة بالدقي من قبل ووزارة الإصلاح
الزراعي من بعد، وكعدد آخر من الوزارات والمصالح
والمؤسسات الحكومية.

هذا، وإذا كان لنا أن نحُدس المستقبل من مؤشرات الحاضر، فإن ضغط القلب من أجل المكان سيفرض نفسه قريباً حين يصطدم بالنيل ومن ورائه خاصة ملاعب الجزيرة التي هي حقيقة استغلال سيئ ومسرف لموقع محوري والتي قد تحبط حركته وتعوق نموه الطبيعي، ولكنه صراع وظيفي لا يمكن أن تكون الغلبة فيه إلا للقلب في النهاية. وقد لا يكون قيام فندق عالمي تجارى ضخم - شيراتون أو سفنكس (١) - على رأس الدقى السكنى في قفزة ضفدعية ضخمة وشاذة، بلا مغزى ودلالة على هذا الاحباط الذى تفرضه تلك الملاعب مؤقتاً.

كذلك فإن كتلة بولاق الضخمة والفقيرة المتاخمة، التى تبدو اليوم ناضجة تماماً لجراحة كبرى فى إزالة العشش، هى بالقوة الاحتياطى والرصيد الطبيعى لتوسع القلب فى بعض جوانبه فى المستقبل. وهى قد بدأت بالفعل تتلقى أو تستشعر وقع بعض فروعه وامتداداته على طول كورنيش النيل فى ماسبيرو (مبنى الإذاعة والتليفزيون مثلاً.. الخ)

هذا عن حركة القلب غرباً، والمهم والسؤال الآن: ما الذى حدث للمنطقة التى هاجر وانحسر عنها القلب بالتدريب؟ انها ببساطة - ولكن ببساطة، إذ أن المقاومة تستمر عقوداً - تفقد بالتدريب أجهزة وعناصر التجارة والنشاط التجارى التى هى مقومات القلب وصفته الأساسية. فالقلة من محلاتها ومؤسساتها الأكثر طموحاً والاقدر على التكيف الحديث تغادره الى القلب الجديد كلية او قد تتخذ لنفسها فيه فروعاً عصرية، والكثرة تزدوى وتذبل بالتدريب ويتضاءل روادها ودخلها وربما ظلت تقاوم اعتماداً على ولاء جمهور واسع الدائرة. ولكنه بسيط الحاجات متواضع الطلبات والقدرات، وقد تتحول الى مخازن وموردين للجملة أو متاجر محلية للحى أو حتى للجيرة، وفي نهاية الدورة قد تصفى أعمالها فإذا بمبانيها ومنشآتها تتحول إلى استعمالات جديدة، سكنية أساساً، أو قد تعدل لتستقبل ورشاً صناعية صغيرة لبعض الحرفيين أو الممولين.. إلخ. وبعبارة أخرى، تتحول المنطقة التى تراجع عنها القلب القديم الى مجرد اطراف وهوامش أو رقع من جسم المدينة العادى بحلقاته

الوظيفية المألوفة خارج القلب كالحلقة الخارجية او الحلقة الداخلية كما تسمى.

وعلى الفور فإن هذه العملية تضع ايدينا على ظاهرة فذة فريدة تختلف بها القاهرة عن المدينة الدائرية الكاملة، وتعد قلبا للعملية الشائعة في ديناميات ونمو اقاليم وحلقات المدينة الداخلية. فالقاعدة مع نمو المدينة ان يتوسع القلب بالزحف على الحلقة الداخلية المحيطة به، فتتحول وظائفها من خليط من السكن والصناعة الخفيفة عادة الى التجارة، ولكن التحول هنا في المناطق الشرقية من القاهرة والتي كانت القلب القديم، ثم على العكس بتراجع وانحسار القلب، وبالتحول من التجارة الى السكن المختلط بالصناعة.

على أن المهم أن هذه الحلقات الجديدة الوليدة هنا تكون ضيقة مختلفة نوعا وربما غير مكتملة الخصائص والمعالم في هذه القطاعات، خاصة اذا ما قورنت بمثيلاتها على الجوانب وفي القطاعات الأخرى من المدينة، ولا تتسع الا مع وبقدر المزيد من تراجع القلب

وانحساره عنها. والنتيجة الصافية أن مورفولوجية حلقات المدينة الداخلية التي كانت في العصور الوسطى نصف دائرة قد أصبحت تخضع للنمط الدائري بصورة عامة، إلا أنه هنا منبعج مختق في شكل مروحى.

هذه العملية كلها لا شك بدأت في القرن الماضى حين أخذت القاهرة الحديثة تستشعر هزة التحول الحضارى الجديد، ولا جدال أنها ظلت تشتد مع شدتها، ولكننا لا نستطيع أن نتبعها بالعين المجردة إلا في الاجيال والعقود الأخيرة حيث دخلت مرحلة النضج. هذا ويلاحظ في تلك الفترة أن طغيان المصالح والمضاربات والنشاطات المالية الاستعمارية والجاليات الأوربية على اقتصاديات المدينة قبل التحرير، وخاصة في القاهرة ما بين الحربين، أعطت منافسة خطيرة وقاتلة لمشروعات وأعمال ومتاجر البورجوازية الوطنية المتوسطة والصغيرة، مثلما نشرت تطلعات الإوربية والتغريب بين الجماهير... الخ.

وهذا كله أتى لحساب القلب العصرى «الأوربى»

الحديث، وعلى حساب القلب التقليدى الآفل، وساعد على تصفيته وذبوله بالتدريج. والكثيرون ما زالوا يذكرون أولا شك سيتذكرون حالات أفلاس كثير من محلات الموسيقى والأزهر.. الخ في تلك الفترة، أما اكتمال الهجرة من القلب القديم الى الحديث فيرمز اليه ببلاغة تحول مركز الثقل والاهمية من شارع الموسيقى الى شارع طلعت حرب، ومن ميدان العتبة الى ميدان التحرير. وقد يمكن أن نعتبر العتبة هي الحد الفاصل اليوم بالتقريب بين القديم والحديث في قلب القاهرة التجارى. وفي الوقت الحالى، أصبح القلب القديم - الموسيقى والأزهر والغورية.. الخ - يلعب في كيان المدينة دورا أقل حيوية وثقلا مما كان في الماضى، ويأخذ بازدياد دور المعقل وخط الدفاع الأخير للقديم في كل شىء..

وعلى الفور، لن يخطئ أحد أن ها هنا ثنائية أساسية في قلب العاصمة التجارى: قلب جديد نابض متنام، عصرى حديث الطراز، في الغرب، وقلب قديم عتيق الطراز، آفل وفي انكماش مطرد، في الشرق. وهذه

الثنائية، التي يعرفها قلب كل مدينة هامة في العالم الثالث، تلخص وترمز الى الثنائية الحضارية القاعدية التي تميز هذا العالم الثالث منذ عصر الاستعمار الأوربي والاحتكاك الحضارى مع الغرب. ومن الطريف في القاهرة أن نلاحظ الاتفاق بين الموقع الجغرافى والموقع الحضارى داخل هذه الثنائية: فالقلب الشرقى القديم فى الشرق، والغربى الحديث فى الغرب ا على أن هذه الثنائية مرحلية فى جوهرها وان طال الامد، ولنا أن نتوقع، ولكن ليس قبل عقود على الاقل، أن يذوب القلب القديم فى الجديد لأى نهاية المطاف مع اكتمال التحول الحضارى والتقدم المادى..

وهنا وفى النهاية تفرض نفسها مقابلة لها مغزاها وطرافتها، وذلك ما بين هذه الثنائية الحضارية وما رأيناه من قبل من تجانس بشرى فى السكان. فاذا كان قلب القاهرة يلخص التنافر الحضارى، فان تركيب سكانها يؤكد أساسا التجانس البشرى. وهذا وذاك على العكس تماما من المدينة الأمريكية: تنافر جنسى وبشرى حاد

وصارخ، وتجانس حضارى إلى درجة التثبيط الممل ربما.
ولعلنا لا نغالى اذا قلنا فى هذا الصدد ان القاهرة أقدم
عواصم العالم القديم ترمز له وتلخصه مثلاً ترمز للعالم
الجديد وتلخصه مدينة من أحدث عواصمه كواشنطن أو
نيويورك...

الفصل الأول

القاهرة.. بنت الصحراء

القاهرة، أكبر المدن الصحراوية (٤١٤ كيلو مترا مربعا، ٣,٣٤٨,٠٠٠ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٦٤ التقديرى) لها لون صحراوى، والذي شادها هو إيمان ربيب الصحراء، وأفضل لقاء لها هو من ناحية الصحراء عبر طريق للسيارات. يبدأ من البحر الأبيض المتوسط ويمتد ١٣٠ ميلا وسط بيداء متموجة غير مقبقة إلى أن يتصاعد خلف الأهرامات ليهوى إلى واحة الوادى، فيتراقص على مساره من نفث عاصمة كبيرة أطياف ألوان ما بين الرمادى والبني، حتى الطائرات فأنها لا تتفادى رؤية الصراع بين الحياة والموت عند اقترابها

إلى ممر الهبوط فوق كثبان من الرمال الجرداء.

والقاهرة مشادة من بطن الصحراء التي تتشبث بحضنها، فالأهرامات العجائب التي أقامها خفرع وورثته قد تألفت من آلاف آلاف كتل من حجر رملي جرى نحتها أولا من تلال المقطم ثم دفع بها إلى الغرب طوفا على الماء عبر الوادي إذ النيل في عز فيضانه مجتازة موقع المدينة اليوم، وشاع بعد ذلك استخدام هذه الكتل الميسرة من لحم الصحراء المتجمد في عمارة الأمراء المسلمين للمساجد والقصور.

أما اليوم فقد رجع جانب كبير من المدينة إلى صحراء النسيان، فقاعة الذهب التي كان يطل منها الخليفة المعز على حفلات بلاطه من خلف ستارة نسجها ووشىها من خيوط الذهب قد اندثرت هي والحجرات الأربعة الآلاف التي كان يضمها قصره بما تحويه من رقيق جلب من اليونان والسودان الذي كانوا يحفون به ليكونوا تحت رهن إشارته، وكذلك لم يبق أثر لبهو الزبرجد في الديوان الكبير، وتلال المقطم التي جاءت منها الأهرامات

والتي تلقى منها الشمس عند مطلع الفجر أول تحية لها
على أبي الهول في الغرب لا تزال تتعلق بها مساجد خربة
كأنها تهويمات لم تتم من وحي أسطورة قوطية.

أن الصحراء تغزو المدينة سواء في ذلك طرقاتها
الفسيحة أو الأزقة المتعرجة في الأحياء القديمة، وتهب
رياح الخماسين من ليبيا في شهر مايو تحمل معها تراباً
ناعماً يتسرب من خلال أحكم النوافذ فيضفى على
المدينة - زرعها وأبنيتها - كساء من مسحوق رمادى.
أن أهذاب المصريين الطويلة هى سلاح ضد التراب،
لا مجرد زينة..

ومباهج القاهرة - شأنها شأن مباهج الصحراء -
تزداد جلاءً لأنها فوق لوحة متربة. عديدة محال بيع
عصير المانجو وقصب السكر لإرواء الحلو الجافة من
العطش الشديد. وفي أركان معتمة رثة الملح تتألق زهور
بألوان متوهجة. وحينما تغيب الشمس أخيراً بعد نهار
قائم من وراء فندق هيلتون تسرى من فوق أرض
الطرق رائحة فريدة هى خليط من أنفاس الفل

والياسمين وزخمة وحوش الفلا.
والصحراء كالبحر، هيهات أن يقال عنها خلاء
محصن، بل أنها ملتقى قوى عديدة، وكما ربط البحر
ما بين الجزر اليونانية في العهود الخوالي، فإن الصحراء
ربطت بين البعيد والبعيد من أقطار الشرق الأوسط، وقد
وفد الزوار والسياح على مكان القاهرة منذ فجر التاريخ
فهي وأن اتخذت اسما عربيا فقد حظى موقعها باهتمام
كبير من قبل أن ينتشر العرب من جزيرتهم بزمان طويل
فعند هذا الموقع الذى يزداد فيه النيل رحابة ليضم بين
ذراعيه أرض الدلتا، وهى على شكل مروحة، أقام
الفراعنة عاصمتهم منف (وهذا الهرم المدرج فى سقارة،
وهو أقدم بناء من الحجر فى العالم كله. لا يزال يطل على
مقابر منف، تراه بالعين المجردة من أعلى العمارات فى
القاهرة) وقد أقام الفراعنة أهم مقابرهم فوق هضبة
الجيزة، لا تبعد عن قلب القاهرة - ميدان التحرير -
إلا مسافة ٤٠ دقيقة باللاتوبيس رقم ٨. ومدينة عين
شمس - هليوبوليس الآن يربطها بالقاهرة قطار
المترو - كانت لها سمعة عالمية فى العلوم، ولكهنتها فضل

على هيرودوث وأفلاطون. وقد أطلق اسم عين شمس على واحدة من جامعات مصر الأربعة.

وأشد زائري القاهرة تأثيراً عليها لم يأتوا ببضاعة التجارة، بل بأفكار دينية، فalcاهرة اليوم - شأنها في ذلك شأن مدن كثيرة - وليدة أحداث موجة من سلسلة أمواج المد البشري، تتناثر فيها شواهد عديدة على تعاقب الأديان. فقد أقام العبرانيون (الذين ذكرهم القرآن باسم بني إسرائيل) في شرق الدلتا وقاموا بنصيبهم في صناعة الطوب، ثم استوطنت جاليات يهودية - قبل ميلاد المسيح بعدة قرون - على ضفاف النيل، وكان أكبر مراكزهم في الإسكندرية بالقرب من مصب فرع النيل الغربي، حيث شرح أفلوطين نظريته عن التوحيد بتعبيرات الفلسفة اليونانية، وقد تبنت الكنيسة نظريته عن «اللوجوس» أو «الكلمة» في شرح عقيدة التجسد الإلهي، ولكن العائلة المقدسة اختارت المدينة الرومانية بابلون في مصر - وهي مكان القاهرة اليوم - ملجأ لها عند خروجهم من فلسطين هرباً من طغيان هيرود. ولا يزال الرهبان الأقباط يقودون زوار كنيسة

أبو سرجة لمشاهدة قبر رطب حيث نام « اللوجوس »
وحراسه. بالقرب منها يوجد كنيس لليهود يحوى نسخة
ثمينة من التوراة.

ولكن لا الكنائس ولا الكتيسات تغلب على افق
القاهرة، فهذه المدينة ليست باليهودية ولا بالنصرانية.
إنها مدينة مسلمة نشأت بفضل دين محمد النبي العربى.
هى عند المسلمين لا تقل جلالاً عن مكة، التى تتجه إليها
قبلة الصلاة فى مساجد القاهرة، ولا عن المدينة مثنوى
الرسول. وإذا كان الأفق من حول القاهرة قد ارتسمت
عليه منذ سنة ١٩٥٢ ظلال ناطحات السحاب وصروح
أخرى هندسية، فإن العين لا تلاحظ على هذا الأفق إذا
ترامت نظرتها فوق الأسطح الغبراء إلا المآذن المشرّبة
للسماء، يتردد منها صوت المؤذن للصلاة خمس مرات فى
اليوم.

وللقاهرة - لأنها مدينة صحراوية - ثروة نباتية
تنفرد بها: زهور لا تنمو فى الشمال إلا داخل بيوت من
الزجاج وأشجار تضى زينتها على ما حولها من قتامة،

أشجار الكافور التى تخشخش أوراقها الرقيقة، أشجار السنط التى لا ترهب الجفاف، أشجار الجميز، أشجار التبن البنغالى التى تتهدل منها فروع متجهمة لتنبت منها جذور أشجار جديدة معتمة، ثم النخلة التى جعل القرآن ولادة المسيح تحتها. وإذ كانت السماء لا تمطر إلا نادرا فان اللون الأخضر يشوبه على الدوام صفرة مغبرة..

ولكن دع عنك النبت والحجر، فإن الذى يجعل القاهرة فريدة بين المدن الصحراوية إنما هو هذا النهر الذى يهبها الحياة، فالمدن الأخرى التى تقوم فى الصحراء حيث الواحات إنما يغلبها العطش ويهددها، أما القاهرة فالصحراء عندها يشقها النيل - أطول أنهار العالم القديم - يحمل إليها العطايا من شاطئ الأطلسى عبر الغابات والأحراش والجبال والوهاد فى أفريقية الوسطى.

الفصل الثمانى

القاهرة.. بنت النيل

منذ أن امتنع ورود ماء فيشى للقاهرة، لا مندوحة لكل من يسكنها أو يزورها من أن يكون شربه وقفًا على ماء النيل، هذا النهر الذى يلاحقه شعار: «من شرب منه عاد إليه»، وأصدق منه الشعار القائل: «من ارتوى منه لم يطق السلو عنه». أما للفلاح فمأؤه، وإن عكر فهو نعمة فيها الحياة، فالناس تتشبت بهذا النهر وتلوذ به، ففى فراقهم له عذاب الإشراف على الهلاك.

وهذه العبارة الأخيرة ليست من وحى بلاغة خطائية، لأنك لو شرقت أو غربت عشرة أميال بعيدًا عن شريط

الماء وضلت السبيل فستموت عطشاً إن لم يتداركك
البدو أو جماعة من المنقبين عن البترول، فالمطر نادر،
ولولا النيل لكانت القاهرة بقعة بلا اسم في بيداء تمتد
بلا انقطاع من جبال البحر الأحمر إلى شاطئ الأطلسي
عبر الصحراء الكبرى..

أما أصدق شعار للنيل فهو المستمد من لونه، فاللون
المفضل عند عجائز العقيلات في انجلترا لحفلات الرقص
يوصف بأنه أخضر نيلي، فاقترن النيل بخضرة يختص بها
- اللهم عند الفجر حين يكتسى بغلالة جالت عليها
الفرشاة التي رسمت ريش الطاووس، أو عند منتصف
الليل حين يكون لسطح الماء لمعة الفولاذ.

أما الوصف الذي لا يلحق النيل فهو إباء الثبات،
فإن مجراه قد خضع لكل شيء في الوجود - لتصاريف
الزمن. والخضوع هنا تنظيمي، للقضاء على نزوات النهر
في الماضي. إن النيل لمصر هو شريان قلبها. وكان أول
بناء أقامه العرب حين رفعوا على مصر راية الإسلام هو
مقياس النيل، عند الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة،

ولا يزال هذا المقياس ماثلاً للعيون وإن أقيم فوقه سياج حديث (وكان للفراعنة مقياس للنيل في الأقصر وغيرها من المدن) ومقياس النيل بئر عميق كسيت جدرانها بالحجارة، في وسطه عمود له تاج من طراز كورنثي. و«الذراع» هو وحدة القياس المبين عليه. إن استنباء مقياس النيل أشد لزوماً وأجل خطراً من التكهّنات بحال الطقس عند الأوروبيين قبيل العطلات الصيفية، فعلى مقدار ارتفاع المياه في المقياس يتوقف الغد: إما خصب وإما جدد..

والموعد المرتقب لوصول فيضان النيل من أواسط أفريقية يقع في أواخر أغسطس. حينئذ تخرج المدينة كلها للترحيب بمقدمه في احتفال يسمى «وفاء النيل». أما في السنين التي يخشى فيها أن لا يفي النيل كعادته، فكانت طوائف المبتهلين تخرج من شوارع القاهرة على الشاطئ الشرقي وعلى رأسهم السلطان ومعه رجال الأديان جميعها - أئمة المسلمين وقسس القبط وحاخامات اليهود - فيقيمون صلاة جامعة للاستسقاء. كل يقرأ في كتابه المقدس - ليمن الله عليهم بنيل واف عميم. وكان

الفراعنة في القديم يحسبون الفيضان من دموع إيزيس
وهي تبكى على أوزيريس، وكانت لهم طقوس تتصف
بالقسوة، تطورت مع الزمن حتى وصلتنا وهي رحيمة، إنها
طقوس زفاف النيل العاشق وعروسه «عروس النيل»
كانت في القديم فتاة يضحى بها كما كان يضحى أهل أثينا
ببعض فتياتهم على قرون «ميناتور» الغول الذي نصفه
إنسان ونصفه ثور، ثم أصبحت العروس دمية في حجم
فتاة.

والآن تتولى السدود تنظيم النهر، فلن يتكرر جفاف
شهر يوليو الذي يعقبه، بشكل درامي، غمر الماء فوق
شواطئه الطينية العامرة بالفيران. لم يعد يتألف موكب
الزوارق للاحتفال بالفيضان، وإذا علا ماء النيل في أوائل
الصيف فإنه علو قليل، حينئذ يشكو أهل القاهرة من
الرطوبة تضاف إلى الحرارة، فيهرب الأغنياء منهم إلى
الاسكندرية، رطبة هي أيضاً ولكنها اندى نسيماً، دع عنك
شكوى أهل القاهرة أيضاً من كثرة البعوض.

لقد بدل النيل مجراه على مر الزمن فتبدلت أيضاً

مرافقه، فأقدم موانئ النيل على الشاطئ الشرقى
للقاهرة (أما منف فهي على الشاطئ الغربى) كانت
بالقرب من موقع بابلون الرومانية إلى الجنوب من
القاهرة بنت اليوم. وفي القرون الوسطى كانت الميناء
هى «المقس» بالقرب من الموقع الذى يحتله الآن فندق
الكونتنتال وحديقة الأزبكية، وحى المتاجر والملاهى -
بطابعها العصرى - الواقع على يسار خط يمتد من ميدان
المحطة «باب الحديد» إلى باب اللوق عبر الأزبكية، كان
أرضاً عامرة بالبساتين والحدائق فى أوائل القرن التاسع
عشر تغمرها مياه النيل فى كل صيف. وفى القرن الثامن
عشر كانت الأرض التى تحتلها حديقة الأزبكية مكاناً
لبحيرة متسعة (وقد تقلص حجم هذه الحديقة على أثر
تخطيط الحديث لمدينة القاهرة) ثم انحسر ماء البحيرة
فت أرضها بحيث استطاع نابوليون أن يستعرض
نهاراً جيشه. أما ميدان باب اللوق - كما نعرفه اليوم -
بسوقه ومحطة الضاحية حلوان - فقد كان فى القرون
الوسطى مرفأً للقاهرة - بابها من ناحية النهر، فلما بدل
النيل مجراه اختفى «المقس» وحل محله بولاق، وبرز من

النهر بجزيرته «الجزيرة الوسطى الآن»، ثم اندمج حتى بولاق في بقية أحياء السكنى وضاع بينها - كما ضاعت شلزي في لندن، ولكنه كان حتى أيام نابوليون الباب النهري للقاهرة، وكان الذين يصلون بالسفن إليها وينزلون عند بولاق لا يتبينون منظر المدينة لكثرة أكوام النفايات الشاهقة كالجبال ما بين النهر وسور المدينة.

ومجرى النيل لم يتبدل فحسب، بل جرى عليه عدوان الأسمت المسلح، وكذلك الحال مع تلال النفايات فقد تسلقها عديد من البيوت أو غطتها صفوف من الأشجار.

وكان يشق قلب القاهرة إلى مطلع هذا القرن خليج كان أول مجرى يتلقى مياه الفيضان تتدفق إليه من مصب اندثر مكانه الآن، ليسير بعد ذلك في اتجاه شارع الموسيقى، وكان هذا الخليج يضيء - فعلاً لا مجازاً - على المنازل المطلة عليه عطور مدينة جديدة بأن تسمى «بندقية الشرق»، وقد حل هذا الخليج محل القناة التي أنشأها الامبراطور الروماني تراجان لربط وادى النيل بخليج السويس عبر شرق الدلتا، وقد بطل استخدام

هذه القناة إلى أن جدها عمرو بن العاص، أول حاكم مسلم لمصر، ليتسنى تصدير الغلال من مصر لبلاد العرب. وشارع الخليج الآن - وكذلك شارع الكورنيش - هو أطول شوارع القاهرة، أنه شارع عريض لا يسلم من الدمامة، وعمدان النور فيه قميئة مصنوعة من الألومنيوم اسمه الآن شارع بورسعيد. حقاً أن أسماء الشوارع اسرع من مجارى الأنهار فى التبدل.

وكان النيل فى مطلع القرن التاسع عشر - كالبسفور - بمثابة الهوة المخيفة تحت قصور الحكام، يلقي فيها بمثيرى المتاعب من الرعايا وهم موثقون لتلقفهم أحضان نهر لا ندرى هل له عشق الذكر أم عشق الأنثى، أما اليوم فقد اختفت هذه الذكريات الأليمة وصار النهر عنصر وداعة ورقة فى مدينة تتصف بحدة الملامح والطبع.

وأما فندق سميراميس يقف نوتية سمر الوجوه لتلبية رغبة من يريد من أهل البلد أو الأجانب استئجار فلوكة، وأغلب هؤلاء الرجال من أسوان فى أقصى

الجنوب. وأجرة نزهة لمدة ساعة هي خمسة شلنات، وما أن تخطو فوق صقالة مهتزة حتى تتراجع بعيداً إلى الورااء كل ضجة ورائحة للبتروول وتتفخ بالهواء القلاع المرقعة وتعالج بحذق فإذا بالأذن يشجبها صوت تلاطم الماء على جانبي الفلوكة. إن شكلها مخلد على صفحة النيل، تنساب أمام المبنى الحديث لمستشفى قصر العيني إلى كوبرى الجامعة، وفي أيام الأعياد والعطلات تنبعث غلالة من الماء أعلى من الفنادق من نافورة من الأسمنت وسط النهر أقامها «مصنع كروب لإقامة الكبارى».

ويختلف نهر النيل عن نهر عربى كبير هو الآخر، نهر دجلة، واسمه فى اليونانية تيجريس بمعنى النمر، فدجلة نهر مفترس عنيف يطغى على الأراضى فى أسوأ موعد، أى فى فصل الربيع حين لا حاجة بعد لفيضانه، أما نهر النيل فهو أكثر انهار العالم نفعاً - نافع للرى والنقل على سواء، فإن تياره المتدافع دوماً نحو الشمال يحمل السفن إلى البحر الأبيض المتوسط، ورياحه الغالبة عليه تهب من ناحية هذا البحر فى الشمال فهى تسهل على هذه

السفن رحلة العودة دون حاجة إلى عون آخر، وأهم من هذا كله فهو يفيض عندما تشتد الحاجة إلى مياهه أى عندما يبدأ لهيب الصيف في تقديد الحقول.

ويحب أهل القاهرة النيل لأنه عنصر الوداعة والسرقة في بيئتهم الصحراوية، وأفضل المساكن ما كان مطلقاً عليه، وبعد أن احترق فندق شبرد في مكانه القديم بجوار الأزبكية، أقيم له مبنى حديث يطل إلى الغرب على النيل هو وفندق سميراميس وفندق هيلتون. وينشق النيل إلى فرعين إذا التقى بالجزيرة الوسطى، أما فرعه الغربي الضيق فتصطف فيه بيوت من الخشب، هي العوامات، قميئة وإن تكن عليها مسحة رومانتكية، وأكبر عيب فيها أنها عرضة لهجوم البعوض.

ويتم خنوع النيل للقياد عند القناطر الخيرية شمال القاهرة. إنها سد عريض يحتجز الماء لأشهر أربعة عطشى. وهذه القناطر تركز لتوسط موقع القاهرة عبر التاريخ فهي مقامة عند رأس الدلتا فحلت السيطرة على مصر السفلى والعليا، ومن ملك مفتاح الماء في بلد

صحراوى ملك البلد كله. ويرجع الفضل فى اكتساب
القاهرة لأهميتها إلى أنها واقعة حيث يتفرع المجرى
الموحد للنيل إلى عدة رياحات تنتشر شمالا كالمروحة
لتروى أرضا هى مضرب المثل فى الخصب. والقاهرة
ليست مدينة كبيرة فحسب، بل أنها عاصمة كبيرة أيضا
فى يدها مقاليد أمة بلا منازع، ولكن أهلها خليط من
أجناس عديدة..

الفصل الثالث

القاهرة.. أم الألوان العديدة

ظلت القاهرة منذ مولدها مدينة^(١) متعددة الألوان، حتى في القرون التي كانت فيها «دار السلام» مفصولة عن «دار الحرب» - أى البلاد النصرانية. لم تنقطع

(١) كلمة مدينة هي من الكلمات التي حار اللغويون في معرفة مصدر اشتقاقها ويقول الاستاذ الدكتور محمود حجازى في كتابه «اللغة العربية عبر القرون» أن بعض اللغويين يرى أنها من مادة مدن ويرى البعض الآخر أنها الميم ليست أصلاً وأن الأصل هو دين أودان والواقع أن البحث المقارن يخرج هذه الفروض إلى مرحلة الاثبات العملى فاللغات السامية تعرف الدين بمعنى القانون والديان فى العربية والعبرية والآرامية هو القاضى و«بيت دين» فى العبرية هى محكمة كما تعرف العربية «الدائن» و«المدين» لمصطلحين قانونيين فالمادة كلها تعنى أساسا القانون وما يتعلق به =

أجناس عديدة عن الاندلاق على مصر، من بينها شتات الصليبيين (سنة ١١٦٣). هذه هي حال لم تتبدل لمدينة لا تكف عن التبدل. طرق أبوابها الرقيق الأبيض من القوقاز، الذين صاروا فيما بعد حكام البلاد تحت اسم المماليك، والرقيق الأسود من السودان (وما كان أكثر ثوراتهم على الجلالة تجار الرقيق، وكان هؤلاء في وجلهم يجعلون بيوتهم أشبه شيء بالحصون ذات الأبواب المنيع). وإلى جانب أولئك جميعاً تجار من جاوة والصين وعلماء وفقهاء من تونس ومراكش، وأكثر من هؤلاء عدداً وتدفقا حشود الفلاحين المصريين من الدلتا وجنابات الوادي تجري في عروقهم آثار دماء فرعونية يضاف إليهم طوائف من أهل ليبيا والنوبة واليونان والصومال والحبشة. وهكذا استقر من قديم طابع القاهرة المميز لها - طابع تعدد الألوان كما كان يبدو في معاهدها العلمية

=من ضوابط والتزامات. أما الصيغة ذات الميم فظهرت في الارامية بمعنى وحدة قضائية، فالمدينة هي المركز الذي التفت حوله القرى المجاورة وتولت جميعاً وحدة قضائية. وعندما انتقلت الكلمة إلى العربية وأطلقها الرسول على يثرب كان هذا فيما يبدو أول استخدام للكلمة في العربية.

وفي خاناتها التي تستقبل التجار من كل الأنحاء (ويحق لنا أن لا نعتمد على صيغة التعميم - وإن كانت جديرة بالملاحظة - التي أوردتها ناشرة كتاب «دليل المسافر» سنة ١٨٩٦ عن دار موراي للنشر في وصف أهل القاهرة إذ جاء فيه أن ابن البلد القاهري أسرع وأذكى من أبناء عمومته القادمين من الريف فهو بصفة عامة يتميز بخصائص بادية عليه كالسحنة السمراء الضاربة للصفرة والفم الواسع والشفيتين الغليظتين كاملتى الخلقة والأنف البدين العريض والساقين الضخمتين كما تلحظ العين أنه صلب متين البنيان)..

وحين فتح نابوليون أبواب مصر للأوروبيين أصبح تناقض ألوان القاهرة أشد إثارة للانتباه والعجب فقد انضم الغرب العصري على الشرق التليدى، وإن كانت الاضافة الجديدة لا تمثل أفضل الغربيين أو من ذوى الاستقامة والأمانة منهم، فقد توافدت على مصر فى القرن التاسع عشر موجات من المهاجرين الهاربين من الفقر فى بلاد جنوب أوروبا، وأصبح عدد هؤلاء الأوروبيين المستوطنين بمصر يعد بمئات الألوف، وانضم إليهم جواب

الأرض في الليفانتين نسبهم المصريون المضيفون إلى الشام وهي كلمة عربية تطلق على دمشق وتمتد حتى تشمل سوريا ولبنان. وازدهرت أحوال هؤلاء الأجانب في مصر - اللهم من حيث الصحة كأن الطبيعة تغدق عليهم بيد وتعاقبهم بيد، وإن سحتهم لا تسلم من أن يغشاها شحوب رمادي أقل رواء من سمرة من يقيمون بين ظهرانيهم، ولكن رصيدهم في البنوك كان يتمتع دائماً بأطيب صحة..

وليس اسم العاصمة في اللغة الدارجة هو القاهرة، بل مصر، وهو بالعربية يطلق على القطر كله. ومنذ ثورة ١٩٥٢ أصبح التمضير - عن خطة أو عفواً - هو السياسة المتبعة، فانحسرت موجات الأجانب الوافدين، أزاحتها قوانين جديدة وإجراءات المصادرة والتأميم وتغير المناخ السياسي، وما جذب أيضاً هؤلاء الأجانب إلى العودة إلى مواطنهم الأصلية هو ما أصبح يعمها من رخاء. وأمست القاهرة أقل وضاحة وأناقة. وكان الشعب في أواخر عهد فاروق قد سقط في وهدة فقر زاد من وطأته أن لا نجاة منه، وحريق القاهرة في ٢٦ يناير سنة

١٩٥٢) وقد قامت محطة بتزین بین شارعى عدلى وثروت مكان نادى «التیرف» الانجلیزى) لم یکن احتجاجا على الفقر فحسب بل كان احتجاجاً أيضاً على الترف الباذخ وسط هذا الفقر، ففى تلك الأيام الكثیة كان شارع فؤاد الأول وشارع سلیمان باشا (٢٦ یولیو وطلعت حرب الآن) ترتادهما أمیرات جمیلات لشراء كل ما یروق لهن من المتاجر الفاخرة، وكانت بعض المطاعم تقدم القواقع وأنواع الجبن الأجنبى ترد لها بالطائرة من باریس، بینما عاش أفراد الشعب على دخل لا یزید عن قروش قليلة. لم یعد فى القاهرة الجدیة قمم للأناقة، فالقصد هو تحقیق الاستواء، ولا قمم تشمخ فیها الأناقة ولا وهاد یعشعش فیه الفقر..

وإذا كان هدف الحكومة هو الوصول إلى مجتمع متجانس فإن العین لا تخطئ أن تلحظ تباین الأنماط بین أهل القاهرة، فالمدينة فى ذاتها - بتعدد أحيائها وأحوالها - تعكس اختلاف الأجناس والألوان والعادات التى يتألف منها المجتمع القاهرى.

الفصل الرابع

القاهرة.. الطابع البلدى

بالقاهرة ثلاث صحف يومية - الأهرام^(١) والأخبار والجمهورية - تتنافس فيما بينها ولكنها لا تتشاجر ورسامو الكاريكاتور فيها إذا تمثلوا القاهري القح جعلوه عادة رجلا نحىلا قصيرا مخلوع العذار، ذرب اللسان، قد يلبس نظارة، ويخب في جلباب فضفاض من إقماش قطنى مخطط وينتعل خفا من الجلد، وعلى رأسه عمامة مشوشة - أو طاقية قطنية بيضاء، فالطربوش

(١) جريدة الأهرام هى أقدم الجرائد وقد أسسها الأخوان تقيلا وقد هاجرا من لبنان فى سنة ١٨٧٥. وقد صدر قانون فى سنة ١٩٦٠ ألغى الملكية الخاصة للصحف.

الأحر - وكان قد استحدثه الأتراك اقتباساً من شمال
أفريقية - قد اختفى لاعتباره رمزاً للتخلف، فلا يتشبث
به الآن إلا السياح الأجانب وخدم المطاعم من أهل
النوبة، ولم يرج عند القاهرة لحسن الحظ هذا الزي الذى
انتقل إليه الأتراك فيما بعد «البيريه» التى فرضها
أتاتورك على شعبه، وهى غطاء من القماش للرأس
ينتهى برفرف أمامى، وتختص به الطبقة العاملة فى أوربا،
لم تأخذ بها القاهرة تقليداً للأتراك، فأغلب رجال
العاصمة، وكل نساؤها بصفة عامة يسيرون برءوس
عارية.

والصفة التى تطلق على القاهرى كما يتخيله رسامو
كاريكاتور كما تطلق على الشوارع الخلفية هى صفة
«البلدى» وهى فى اللغة نسبة إلى «بلد» وكلمة بلدى
تصف طريقة الحياة التقليدية كما تصف الأحياء التى
تعيش فيها هذه التقاليد. والمصرى بجلايته المخططة
وصوته الأجش واهتياجه السريع وفضفضته فى التعبير
عن نفسه بالصوت والإشارة، قد يبدو فى نظر السائح

الأجنبي الهياب شخصاً متنافراً مع عاصمة تتراكم عليها
المدنية الحديثة، بل قد يبدو شخصاً يثير التوجس، أما
الذين يكلفون أنفسهم عناء مقابله «وهو سهل المنال في
دكانه الصغيرة أو في مقهاه المألوفة» يجدون ابن البلد هذا
- ملح الأرض - شخصاً يتصف بالتواضع والصراحة
وحب الفكاهة والمساواة بين الناس، فإن كان شيخاً
فتوقع عنده ما شئت من مراسم حفاوة رب البيت
الكريم بضيوفه. إن أساس نمط معيشتهم قد رسخ في
أقدم أحياء القاهرة حيث تراكم الزمن طبقة فوق طبقة،
وحيث تقوم دور متداعية فوق خرائب قصور الخلفاء أو
فوق أكوام النفايات..

والكتاب الذين تحدثوا منذ قرن مضى عن القاهرة
وأشدهم دقة هو إدوارد لين صاحب الأثر المعروف
«العادات والتقاليد عند المصريين المحدثين» وصفوها
بأنها مدينة رحيبة تزيد سعتها على عدد سكانها حتى تبدو
كأنها غير مأهولة، ففي سنة ١٨٣٦ لم يكن قد حدث بعد،
ما يترتب على نمو السكان من اختزال إلى أصغر فأصغر

للبيوت العربية الفسيحة بأفنيتها الداخلية الرطبية، مما أدى إلى تزاخم المساكن واختفاء العناية بها. وحين نشر لين بول وصفه للقاهرة بعد سبعين سنة من التاريخ السابق كان لا يزال في الاستطاعة التحدث بإفاضة عن الأحياء القديمة على النحو التالي :

« بعد زحام الطرقات وضجتها ستجد انتعاشك في هذه الرقعة الفسيحة الهادئة داخل الدور، هنا تحس أن المعمار المصرى قد وفق أبدع توفيق في الوفاء باحتياجات العيش تحت سماء الشرق، فإنه جعل الشوارع ضيقة يسقط عليها ظل المشربيات البارزة لأن الشمس تصب شواظها، فلو كانت الشوارع فسيحة كما هو الحال في مدن أوروبا لأصبحت لا تطاق. وإن جعل الشوارع ضيقة فقد حرص على أن يجعل المساكن فسيحة مع إحاطتها بأفنية خلاء مزروعة بساتين وحدائق، فحين لا هواء تصير حرارة الحجرات في الصيف غير محتملة، وفن المعمار المصرى كان يقتضيه أن يبنى لك بيتاً لا تطل منه على جارك من خلال نوافذه ولا يطل هو عليك من

خلال نوافذك، فكان الأسلوب البديهي لتحقيق هذا الهدف هو بناء الحجرات حول فناء داخلي على الأسوار. وستر النوافذ بمشربيات كأنها الدانتلا تسمح بتسلل ضوء خافت ومرور هواء كان مما يتيح لمن يطل من هذه الحجرات أن يرى الشارع دون أن يتأق للمار الغريب أن يتبينه. وهذه المشربيات - أو قل هذه الستائر الخشبية - وكذلك هذه الأفنية المعزولة كانت لازمة لنظام حياة يقضى بحجاب النساء».

وما بقى الآن من بيوت من هذا القليل يعد من معروضات المتاحف - مثال ذلك بيتان بجوار مسجد ابن طولون، تولى ضابط بريطاني الاحتفاظ بهما بطابع القرن السابع عشر وخلع اسمه على ما يعرف اليوم بـ «متحف جاير أندرسون». وفي القاهرة القديمة بيتان بديعان من الطراز المملوكي: بيت جمال الدين الذهبي وبيت الشيخ السحيمي، بقيا محتفظين بطراز لم يعد يمثل القاهرة الحديثة - ذلك أن حجاب النساء قد سقط لزومه في حياة المصريين اليوم. ويرجع بعض الفضل في هذا التحول إلى

نزعة التجديد عند المفكرين من أمثال الشيخ محمد عبده
شيخ الجامع الأزهر الذى توفى فى السنة السابقة لنشر
الكتاب الذى نقلت عنه. وكان من نتيجة شيوع هذه
الأفكار، مع تفسير جديد للدين الإسلامى يتلاءم مع
القرن العشرين أن أصبح الآف من النساء يعملن مع
الرجال جنباً إلى جنب لا فى دور العلم فحسب بل فى
المصانع والمكاتب الحكومية، وهناك فى الأزهر اليوم فتيات
يدرسن علوم الشريعة..

وساير نزعة التجديد فى الفكر الإسلامى نمو مطرد
خلال قرن لنظام علمانى للتعليم، فى قمته جامعتان فى
القاهرة، تقوم بجانبها أيضاً جامعة أمريكية. وأغلب
الشباب من الكتاب والمفكرين لهم نزعة علمانية،
وبعضهم يولى ظهره للدين..

دع عنك هذا التحول الفكرى، فإن تراحم البشر فى
القاهرة يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلاً، ولم يعرف
الريف قط نظام الحجاب حيث تعيش النساء وهن
سافرات يساعدن رجالهن فى العمل بالحقول. إن نظام

الحجاب كان شرفاً مقصوداً على المدن. وكل مبالغة تقصر
عن وصف ازدحام الأجساد في القاهرة - أكبر مدن
أفريقية - لا لأن أهلها يتكاثر نسلهم جيلاً بعد جيل
فحسب، بل لأنها كالعهد بكل العواصم بمثابة الإسفنجية،
تمتص مئات الألوف من المهاجرين من أبناء الريف،
وترتب على ذلك أن كل قطار قادم من الشمال أو
الجنوب يصب في القاهرة مزيداً من السكان. كان عدد
هؤلاء السكان سنة ١٨٨٢ هو ٣٧٤,٨٣٨، وتضاعف هذا
العدد عشر مرات في سنة ١٩٦٤ وسيتجاوز أربعة ملايين
حين تمضي سنة على نشر هذا الكتاب.

والقاهرة القديمة.. أى هذه الرقعة التي لا يتجاوزها
صوت المؤذن في مساجد حي القلعة، لم تعد المركز الذي
يتكشف عنده هذا النمط التقليدي لحياة أولاد البلد،
فهذه شبرا كانت قرية انشأ فيها محمد علي قصرًا صيفيًا
له، وكانت الكتب المعدة للسائحين إلى سنة ١٨٩٦
توصيهم بشبرا إذا أرادوا الركوب في الأمسيات للتنزه في
الريف ومشاهدة قنواته وجاموسه. أما اليوم فإذا أردت

أن تشاهد الريف فعليك أن تمضى إلى جهة أخرى : غرباً إلى الأهرامات أو جنوباً إلى حلوان، لأن شبرا ذاتها أصبحت أشد زحاماً من إيست هام وهارلم أشد أحياء لندن ونيويورك زحاماً، واحتل نظام المعيشة البلدية مئات من شوارعها. وإذا كانت شبرا لم تعد تصلح لمن يريد التنزه في الريف فإنها مع ذلك تستحق الزيارة بسبب أن فيها كنيسة «سانت تريزا» وهى إحدى المزارات العجيبة الموجودة في العالم، أخذ في إنشائها في العقد الثانى من هذا القرن طائفة من الكارمليت تجمع بين الانجليز والأيرلنديين، وبدأ محراب صغير فيها يجتذب إليه جموعاً غفيرة من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، والكنيسة القائمة اليوم هى مزار للأمهات المصريات، يدفعن فيه بأبنائهن أو بقطع من ثيابهن للمس صندوق زجاجى يضم رسماً للقديسة وجدران مدخل الكنيسة منقوش عليها نذور بأكثر من اثني عشر لغة من بينها نذر لرئيس وزراء سابق فى مصر.

و«العباسية» حتى كذلك من الأحياء السكنية التى اندلقت فيها المدينة القديمة خارج حدودها وفاضت على

الأراضي البراح الممتدة إلى هليوبوليس والمطار فقصر
حبيب سكاكيني، وهو أعجوبة بطرازه القوطي وبأعمدته
على هيئة فتيات من ذوات الأجسام البضة وبأطوره
الجدران المنقوش عليها زخارف نباتية حول الحرفين
الأولين لاسم صاحبه الليفانتى ولقبه، كان في الأصل معداً
لإقامة خلوية، فأصبح الآن تلتقى عنده دروب عديدة
لحى سكانى مزدحم إلى درجة الاختناق. وحتى في
هليوبوليس «مصر الجديدة» تمتلئ الشوارع الخلفية
بمنازل على غرار منازل الأحياء السكنية في القاهرة
القديمة، ولكنها تستوعب أجهزة الترانزستور والغسالات
الكهربائية كما يستوعب عش الطائر نتفاً منزوعة من
نفاية خيوط الغزل أو صفيح السباك، وتلعل أجهزة
الراديو من المقاهى، ويسير الناس في الشوارع مرتدين
البيجامات وتعرقل ٤٠ ألف سيارة حركة المرور، ويندفع
رجال الشرطة بزيهم الأسود شتاء الأبيض صيفاً في
نقاش بصوت عال مع المارة حتى ليظن العابر خالى البال
أن ثورة توشك أن تندلع وهذا هو طبع الشرق ثم يتحول
هذا كله إلى تكشير بالأنياب سرعان ما ينقلب إلى تبادل

السلامات. وهنا طرح كبير للأطفال كطرح الكتاكيت ولكنهم كتاكيت غير متشابهة عند خروجهم من معمل التفريخ فهم أخلاط متباينة ولهم ضجة عالية، إنهم لا يزالون في رهبة من آبائهم، كثير منهم يميل إلى الشر وبعضهم إلى الانحراف، وهؤلاء ملاجئ إصلاحية يدخلونها إن أمكن القبض عليهم فهم خفاف في الجرى والقفز، ومع ذلك فلا تدل الإحصاءات على تفشى هذا النوع من الإجرام المعلوم الهدف الذى هو فى بعض الأحيان طابع المجتمعات الأكثر رخاء.

والأحياء البلدية فى القاهرة جدرة بالزيارة فى جولة ستكشافية فهى بقايا لا تزال حية لمسرح ألف ليلة وليلة، وإذا كان كثير من حوادث هذا العمل القصصى العظيم عند العرب قد وقع فى بغداد فإن المجتمع الموصوف فيه هو مجتمع القاهرة، ولا يزال كثير من سمات الحياة كما تبدو فى ألف ليلة وليلة باقية إلى اليوم. وخير الطرق لاستكشاف الأحياء البلدية هو أن تسعى إليها مشياً على القدمين، وستكون آمناً مطمئناً، ولكنك قد

تعرض لاشتباكات جدلية إذا أبرزت آلة تصوير لا ترحم، فإنها قد تثير الغضب والاحتجاج من جراء الشعور بأنك تخلت عن دور الضيف - وللضيف مكانته المقدسة في الشرق - لتقوم بدور «البصاص» الذي يتصيد عجائب القارات كما يتصيد هاوى الفراشات أنواعها العجيبة وإن هذه الأمثلة التي تجمعها لعجائب السلوك الإنساني ستعرضها على أصدقائك في بيتك حين تعود إليه في جو من التندر والسخرية، والسبب أن هؤلاء الناس أصحاب القلوب الطيبة قد بدأوا يعيشون في مأساة انتباههم إلى أنهم متخلفون، وأن اعتماد كيانهم على الدروب الضيقة والمعيشة والعمل نشرًا تحت قبة السماء قد يعد من الوصمات. والطبقة الوسطى في المجتمع هي التي غرزت في أذهانهم هذا الخاطر أكثر مما غرزه الأجانب. وفي الحق أن خير نتاج مصر هو الذي ينبع من هذه الدروب الضيقة، فهنا حيوية هيات أن يكون لها قرين، وحماس وتطلع، جديران بالإعجاب، لمباهج الحياة الصغيرة الهامة تنال عفواً.

ولكن ليس كل أفراد الطبقة الوسطى ينظرون إلى

هذا الطراز من المعيشة نظرة ازدراء، فالروائي نجيب محفوظ قد سجل بعناية قصوى مشاهدتها في روايته « بين القصرين » وهي ثلاثية تتبّع الأجيال وتعكس حياة أولاد البلد في أدق تفاصيلها، وكذلك يوسف شاهين وهو من ألمع المخرجين في ميدان السينما بمصر قد صنع فيلمًا عن شاب مصاب بانفصام الشخصية يرتدى الجلاية وجعل حوادث الفيلم تدور في محطة باب الحديد بضجتها العالية وحواشيها الرثة الحظ.

الفصل الخامس

القاهرة.. الطابع الإفرنجي

وأغلب أولاد البلد في القاهرة يقبلون على شراء البنطلون إذا قدروا على دفع ثمنه، يقتبسونه ويقتبسون معه نمط الحياة الإفرنجية. وكلمة «أفرنجي» هي المقابلة لكلمة «بلدي». إنها النطق العربي لكلمة «فرانك» وهي اسم قبيلة جرمانية استوطنت فرنسا في القرن الخامس وأطلق في الشرق على الأوروبيين عامة، فهي تعني الآن في موضوعنا كل ما هو ليس بمصري، أو كل ما هو أجنبي. وكان التفرنج يعني في البدء - علاوة على لبس البنطلون - الرقص الأوروبي على أنغام الموسيقى وحفلات الكوكتيل واللوحات الزيتية في حجر الاستقبال

بدلاً من لاقتات الخط العربى وأثاث من طراز لويس الخامس عشر - يصنعه للزبون المتفرنج نجار بلدى ! - ويعنى فوق ذلك أيضاً إيداع النقود فى بنك لا فى شكومية كان هذا فى البدء، أما الآن فقد أصبحت جميع هذه الأشياء من صميم الحياة فى القاهرة بحيث انقطع الإحساس بأنها من اختصاص الإفرنج.

والمتفرنج القاهرى (وهو مسلم فى تسع حالات من حالات عشر) ينبغى التفريق بينه وبين «الخواجة»، وهذا لقب صيغ فى الأصل ليطلق على كل من هو مسيحي أجنبى وإن شمل أحياناً القبطى: المصرى المسيحي أيضاً. ويعيش المتفرنج القاهرى والخواجة جنباً إلى جنب فى وثام أشد من وثام المسيحيين والمسلمين فى قبرص، إلا أن لكل منها حساباً مختلفاً للآخر. قد يكون نمط حياتها متشابهاً، ولكن «الخواجة» الذى كان من قبل يتميز بسلطان اكتسبه إبان هيمنة الغرب المسيحي على أقدار العرب، قد خف الآن فى الميزان. وكلمة «خواجة» ذاتها. - وهى من ألقاب التكريم فى لبنان - أصبحت فى

مصير تبطن معنى الازدراء، لذلك يفضل الأجنبي أن يكون النداء عليه «يا سيد» بدلاً من «يا خواجه» فإن كلمة سيد في مصر الآن تعمل عمل كلمة «مستر» في إنجلترا.

والطبقة الوسطى هي العنصر الحاكم على القاهرة الحديثة، فمن صفوفها خرج أولئك الذين يخططون العاصمة كما هي اليوم، ويرسمون لها أذواقها، ويقودون ثورتها. وقد انبثقت هذه الطبقة الوسطى حديثاً من الجماهير البلدية، وكان القرن التاسع عشر يكاد يولى من قبل أن يصبح للعامة من المصريين حق امتلاك الأرض، وكان كسر احتكار الأسرة الحاكمة للملكية العقارية هو منشأ الطبقة البورجوازية، والفروق بين الطبقات المائعة، والطبقة الوسطى آخذة في النمو، وقد نحدثس حجمها من نتائج احصاءين، فبينما لا يزيد عدد أصحاب السيارات في القاهرة عن ٧٠ ألفاً نجد ما لا يقل عن ٦٠٠ ألف من سكانها بين موظف حكومي أو مستخدم، وفئة المستخدمين تشمل أناساً قد وضعوا قدماً - على الأقل - على أول سلم الطبقة الوسطى.

وتعيش الطبقة الوسطى موزعة في كل الأحياء السكنية، ففي شوارع يغلب عليها الطابع البلدى بضجته ودكاكينه ولعب أطفاله بالكرة في الطرقات، تتعالى عمارات تسكنها أسر متفرنجة، وإن بقى لها أقارب في القرية أو في المدينة. ولكن بعض المناطق يكاد يغلب عليها الطابع الإفرنجى. والزمالك هي أكثرها عمراناً وأشدّها افتقاراً إلى السمة الذاتية وهي تمتد مسافة ميل ونصف في شمال «الجزيرة»، هنا تتبادل أشجار البوجانفيليا والزاكرندا والبوانسيتيا تزيين شوارع تقوم على جانبيها دور السفارات وأعيان القاهرة. أما الطرف الجنوبي من «الجزيرة»، فيعيش تحت جناح برج القاهرة ونادى الجزيرة، وكان هذا النادى في وقت ما وقفاً على الموظفين الإنجليز ورجال الأعمال الأجانب، واليوم ورثه المصريون عنهم..

أما الروضة - الجزيرة الجنوبية - فهي أقل طولاً من «الجزيرة» بمقدار ميل ونصف وأقل منها أيضاً تعالياً، فإن عماراتها المزدهمة بالسكان لا يسعى إليها إلا لابسو

البنطلون، أما لابسو الجلابيب فهم الخدم والباعة، على حين أن الشاطئ الغربي للروضة تتسم مساكنه بالترف.

وفي أحد القصور المطلة على النهر كان يقيم باشا مصرى متزوج من سيدة يونانية، وبلغ من غرامها بالطب الفرعونى القديم أن خصصت له ثلاثة معامل. وفي إحدى المناسبات عارضها صديق ثرى قتله السأم يريد أن يملأ فراغه بشيء ما ولو كان شرًّا فتحداها أن تظهر قدراتها، فحبست عنكبوتًا سامًّا في آنية زجاجية (برطمان) مع تمثال من الطين على هيئة هذا المستهزئ الساخر وأودعته بعضًا من شعره وأظافره. ولم يحدث شيء، ثم اضطرت الساحرة إلى السفر إلى سويسرا لبعض الأمور العاجلة، وبينما هى هناك وصلتها برقية تفيد أن صديقها هذا فى المستشفى على وشك الموت - فيما يبدو - بالسرطان فاتصلت من زيوريخ بالتليفون لتقوم بعملية إنقاذ، وأمرت خدمها بأن يقتحموا المعمل، فوجدوا أن العنكبوت الذى كان على وشك الموت جوعًا داخل البرطمان قد فرض طريقًا عميقًا داخل التمثال، ربما

سعيًا وراء قطع الأظافر، فأمرت الساحرة خدامها النوبيين بأن يغسلوا التمثال في ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملاً) فبأن تمت العملية حتى شفى صديقها الضحية في الحال.

والطبقة الوسطى غالبية أيضاً على الشاطئ الغربي للنيل عند محافظة الجيزة، تحيط هناك بإحدى مؤسساتها - وهي الجامعة - وكذلك غالبية هي على مصر الجديدة والمعادي، وكانت الضاحية الأخيرة خالصة لسكنى الأوروبيين، أما اليوم فإن العنصر المصرى شائع فيها..

وعسير عليك اليوم أن تجد من يتحمس للمصريين من الطبقة الوسطى، هم اليوم على غير ما هم عليه، وأنت إذا أعربت عن ازدرائك بقيم الطبقة الوسطى ستجد كل فرد من أفرادها في القاهرة يوافقك على رأيك، هذا مع الاعتراف بأن التحمس لجماعة دون تفرقة بين أفرادها لا يخلو على أية حال من تحيز متفضل، فالذى يقول إنه متحمس لفصيلة من الكلاب لا يختلف عنه من يقول إنه متحمس للزئوج. والطبقة الوسطى في

القاهرة - كالشأن بها في كل بلد - هي منبت أفراد للأمة وهذا هو مبرر وجودها. وأشخاص رواية «الرجل الذى فقد ظله» - وتجرى حوادثها في حى قاهرى - يصفهم مؤلفها فتحى غانم تعميماً بأنهم قساة وأنهم جديرون بالسخرية والرياء معا، ولكنهم شهود على القرن العشرين في كل مكان، وليهنأ القارئ الأجنبى إذا لم يجد نفسه صورة أخرى من هذا الانتهازى المجرد من البطولة الذى جعله المؤلف بطل روايته. وهذه الرواية - ومعها كتابات أخرى عديدة - تعبر عن عقائد طبقة خلعت عنها قيم الماضى وأزياءه. وقد وصف فتحى غانم حادثاً بقى في ذاكرته منذ طفولته كحادث هام، حين تحدث عن أبيه القروى الذى كان أول فرد في الأسرة خلع الجلالية، فإن أباه هذا ذهب إلى طبيب ليمحو بالكى آثار وشم على يده، وكان الصبى يعجب بهذا الوشم وأحزنه أن تختفى عن يد أبيه رسم الثعابين والتروس، فلما كبر الصبى أدرك أن هذا الكى في غير ضرورة هو رمز مأسوى لطبقة نبذت معايير قيم تقليدية من أجل قيم جديدة تكاد تكون غير مقنعة لهم بعد..

وسواء كان هذا التحول صواباً أو غير صواب فإن تطلعات الطبقة الوسطى - على كل حال - هي التي تحدد للعاصمة رسمها، فذوق هذه الطبقة هو الفيصل: أى المباني يهدم وأيها يبقى وأيها يقام. وتدشين انتصار الطبقة الوسطى على نظام الحكم السابق تمثل فى إنشاء كورنيش النيل بامتداد ٢٥ كيلو متراً فقد ظل هذا المشروع موضع بحث طال سنين عديدة، ثم إذا به يتم تنفيذه خلال أسابيع قليلة، والآن يتمتع المصريون من جميع الطبقات بهذا الكورنيش الذى يعد حقاً رثة جديدة للعاصمة..

وتهيم الطبقة الوسطى بما هو ضخم، حديث، مريح، فها هو مبنى التليفزيون بطوابقه الثلاثين له إشعاع صورة الحياة عند الطبقة الوسطى لمن يملكون أجهزة التليفزيون أو لمن يتحلقون حول شاشته المقامة فى الميادين العامة. وقد قدمت قنواته خلال سنة ١٩٦٤ برامج ترفيهية وثقافية استغرقت ١٣٧ ساعة و١٦ دقيقة

وكذلك برج القاهرة، إنه خارج من أحضان الطبقة

الوسطى، وقد وصفته إحدى النشرات الحكومية بأنه من روائع المعمار الإسلامي الحديث، ولكنه يشبه سلة مهملات الورق، ضخمة متعالية، وفي سطحه مطعم دوار يتحرك على عجلاته الصغيرة تحرك قطار بطيء جدًا بحيث أن الذين يتناولون فيه - وسط جو من المرح - وجبة كاملة (حساء - لحم - فاكهة) إذا رفعوا أبصارهم عن طبق «السكالوب على طريقة فيينا» رأوا أن المنظر قد تبدل كل التبدل، أصبحت الأهرام على يسارهم حيث كانت القلعة من قبل تلوح لهم كأنها لا تتحرك.

الفصل السادس

القاهرة.. والأرستقراطية

لم يكن للطبقة الوسطى قبل أعوام أية سيطرة ولم يحظوا بالسكنى فى المباني والشقق الفخمة إلا قليلاً، فقد كانت موجودة وقتذاك أرستقراطية يحسب لها كل حساب فبيدها زمام الأمور. ومنذ سنة ١٩٥٢ سافر إلى الخارج معظم الأرستقراطيين والإقطاعيين، وفضل من كان منهم من أصل تركى، دون أن يكون منتمياً إلى العائلة العثمانية المخلوطة، الإقامة فى تركيا - واختار آخرون سويسرا أو فرنسا أو - كما فعل الملك السابق فاروق - مونت كارلو. وفضل البعض البقاء بعيداً عن الأضواء ما استطاعوا بمعاش ضئيل (وذلك فى حالة الأمراء

والأميرات السابقين) أو بما بقي لديهم بعد التأميم والمصادرة. واستمر البعض في شغل القصور الجميلة التي تحوى أثاثاتهم يستعملونها كيف شاءوا بدخلهم الضئيل. وأبدعت سيدة مجتمع سابقة قطعاً فنية رائعة من تجميع قطع الزجاج الفاطمي أو من قطع أشغال العظم القبطية التي يمكن اقتناؤها من محال بيع القطع الأثرية والأنتيكات، وشتان بين ما تبدعه وبين ما يصنع بالجملة لأفواج السياح، ويتحول نتاج ما تصنعه إلى إحدى الجمعيات الخيرية القبطية. ويعزف أمير سابق أنغام شوبان في الاستقبالات المحدودة من أجل البر أيضاً. ولا يتصور كثير من هؤلاء الأرستقراطيين الذين بقوا كيف يتركون مصر، فهم مخلصون لها بحماس يعسر دائماً إدراكه ممن احتلوا أماكنهم..

ويسكن في جاردن سيتي أثرياء الأقباط، وكثير منهم اقتنى الكتب الانجليزية وتخلق بالمعيشة الإنجليزية، ويأخذك العجب وقليل من الحزن أيضاً وأنت تزورهم في غرف مكاتبهم.. التي رصت جدرانها بالكتب عندما

يسألونك بذهن شارد عن اسم كان ملء الأفواه في عالم
الأدب أو عن «زيد» أو «عمرو» الذي كان يشغل مركز
نائب دولة أو سفير ثم بات في هامش الحياة.

وقد نبذ الأقباط الأسماء الإنجليزية واختفت أسماء
مثل وليم وجفرى وسسل، وحل محلها أسماء أكثر فطنة
مثل «توفيق» أو حتى «جمال» وهي مدلولات غير محددة
تنفع للمسلمين والأقباط على السواء.

الفضل السابع

القاهرة.. الطابع النوبي

والنوبيون طبقة أخرى ليس لها طابع غالب على المجتمع في القاهرة مع أن آثار بلادهم هي محل اهتمام السياح، ووسامة ملامحهم تستأثر بشغف الفنانين والمصورين الفوتوغرافيين. وليس هناك شارع معين تقصده فتجد عنده النوبيين، بل هم يشاركون المهاجرين من القرى سكنى حتى قد لا تلاحظه عين القاطن العابر في فندق هيلتون أو شبرد، وأنا نفسى لم أنتبه لوجود هذا الحى العجيب إلا حين كنت أقيم فى بنسيون فى الطابق الثالث عشر من عمارة تكاد تكون من ناطحات السحاب، فقد استيقظت ذات صباح على صياح ديكة

وثغاء غنم، فلما خرجت إلى الشرفة وأطلت منها رأيت قرية متناثرة على الأسطح المستوية للمباني المجاورة، إذ هي تزيد في ارتفاعها عن ستة طوابق، وتتكاثر فيها. تقليداً للفن الحديث زخارف من المعدن والجص أى أن المنطقة تقابل شارع اكسفورد في لندن. وجدت من تحتى بط يبطط، وأغناماً تلوك حزماً من البرسيم، ونساء في ملابس سود تمد أيديهن إلى أقفاص الدواجن لتخرج بفطور عياهن (والبيض في القاهرة بيض بدارى الدجاج فيلزمك أربع منها لكى تصنع لك عجة). في كل قرية من هذه القرى المتناثرة على الأسطح يعيش البوابون - وهم في مساكن القاهرة من علاماتها المتميزة - فإنك لا بد واجد عند مدخل كل عمارة بواباً - واحداً على الأقل - جالسا على دكة، يلاحق بنظره الداخلين والخارجين، وفي أغلب الأحيان يكون مع رفاق له، والنوبيون يحبون المؤانسة. إنهم يأتون من هذا الوادى الضيق ما بين أسوان وشمال السودان، وقراهم تمتد طويلاً، النيل هو شارعهم الرئيسى، بيوتهم فسيحة، نظيفة، طليقة الهواء، جدرانها مزينة برسوم من صنع أيديهم، ما من باب عليه

قفيل، فليس هناك سرقة، وليس هناك زنى، ويعترف
القاهريون بأمانة النوبيين ويرونها سبب استخدامهم
بوابين. ومع كل هذا فقد احتجت الحكومة السودانية
لدى منتجى السينما المصريين لأنهم يظهرون الشخصيات
ذوى السحنة السمراء فى دور الخدم دائماً ولم يظهروهم
سادة مطلقاً.

وتتصف القاهرة بقدر عظيم من التسامح. قد يحدث
اشتباك بين خواجه ومسلم وبين مصرى حنطى اللون
وآخر من أبناء السود، ولكن لا يكون هذا الاشتباك
بسبب نفور جنس من جنس. وبعض دروب القاهرة
تشبه حى هارلم فى نيويورك، ولكن بدون حزازاته، وإن
كان السودانيون يتجمعون فى مقاه خاصة بهم فليس
مرجع ذلك أنهم معزولون عن المجتمع، بل إلى اختيارهم
هم أنفسهم لهذه المقاهى، شأن المقهى التى تجدها فى كل
مدينة وقرية كبيرة فى وادى النيل فيها أبناء القاهرة
المغتربون عنها.

الفصل الثامن.

القاهرة.. منازل الأموات

وفي أطراف العاصمة قطاع تقطنه الأغلبية العظمى. يقطنه الأموات. إنها مدينة أو قل ضاحية إن شئت، تمتد وتستدير مع مدينة الأحياء ما بين شوارعها المزدهجة وتلال المقطم - تلك الخريطة المقسمة دروبها تقسيماً هندسياً تبين لك إذا وقفت عند مسجد الجيوشي فوق القلعة من أعلى الحصن الذى قد قذف منه نابليون بقنابله العاصمة الثائرة. إنها ليست أرض الجبانة وإن كانت القبور جزء منها، بل هى مدينة مسطحة وحشية اللون، لها هى أيضاً شوارعها، وعلى بيوتها أرقام كأنما تنتظر مع الصباح موزع البريد، ولكنه إذا دق

الباب لن يفتح له أحد، فإذا دفعه دخل إلى مأوى كأنه
مسح للمعتاد من مساكن الأحياء: حجرتان متجاورتان
على أرضها بساط من التراب. وفي كل منهما نصب
مستطيل من حجر أو جص، وتحت أرض إحدى
الحجرتين يرقد الذكور من أموات الأسرة، عزهم الموت
عن الإناث المدفونات في قبور الحجرة الأخرى. ويسجى
الميت على لوح من الحجر، مكفناً ولكن بلا ناووس.
ومتاح لك زيارة مقابر الممالك، حكام مصر خلال ستة
قرون، وزيارة المسجد الذي يضم رفات سلالة محمد علي،
ويرجع عهده إلى القرن التاسع عشر وله زخارف كثيرة.
وأعرف فتى مصرياً ولد ونشأ في أمريكا، ذهب أخيراً
إلى مقبرة أسرته ليحضر دفن عمته، وكان لم يألف بعد
عادات بلده، فركبته الحيرة حين اقترب منه أحد أقربائه
وقال له في اهتمام خاشع انه أتى إليه من بعد أن ألقى
السلام على أخته. لم يفهم قوله أول الأمر ثم أسعفته
ذاكرته وأدرك أن محدثه يعنى أختاً له ماتت في طفولتها
قبل مولده، إنها كانت راقدة في قبر الأسرة طوال السنين
وتزار هي أيضاً.

أما الذين ينكرون دوام الصلة بين أهل القاهرة اليوم وأهل منف من قبل أربعة آلاف سنة، فإن في مدينة الأموات التي وصفتها ما يكفي للرد عليهم. كان الرومان يحرقون موتاهم، والإغريق يدفنونهم خارج المدن على قارعة الطريق، أما الدين الإسلامي فمن سنته دفن الميت في قبر لاحد لبساطته حتى إنك تستطيع بيدك أن تسويه بالأرض (قبر الملك عبد العزيز آل سعود مع أنه توفي منذ عشر سنوات فحسب لم يعد الآن في الرياض من يذكر أين هو ولا بقي من يزوره).

وتنفرد القاهرة دون بقية عواصم الإسلام بنظامها هذا للمدافن وما يستتبعه من واجبات، ففي الأيام المشهورة على مدار السنة - كأيام العيد الصغير الذي ينتهى إليه شهر الصيام، وأيام العيد الكبير الذي يحتفل عنده بوصول الحج إلى مكة - تحتشد الناس وتتوافد على مدينة الأموات، يحمل كل منهم سلة بها طعام كأنه خارج إلى نزهة، متلهفاً على زيارة أفراد أسرته الذين صاروا عاجزين عن لبس الأثواب الجديدة في العيد أو التمتع بالفسحة وشم الهواء. وكان هذا هو الشأن أيام الفراعنة

فى مواسمهم أفضا؁ وان اختفت اثنتان من عاداتهم -
الآن لا تحنيط للموتى؁ والدفن فى الضفة الشرقية من ..
النيل حيث تشرق الشمس؁ أما عند الفراعنة - اللهم
إلا أيام هرطقة أحناتون - فقد كان الميت يدفن - بعد
تحنيطه بنفقة باهظة أو متواضعة وفقاً لدخل الأسرة - فى
الضفة الغربية من النيل؁ حيث مملكة أوزيريس.

وكان لصوص المقابر من المشكلات الدائمة للفراعنة؁
وما الأهرامات والقبور الغائرة فى الصخر إلا محاولات
لتضليل هؤلاء اللصوص. وأهل القاهرة يعانون منهم
اليوم أيضاً؁ شأنهم شأن أجدادهم. وهناك قوة من الحرس
تجوب المقابر؁ من أجل أفرادها ومن أجل أسرهم أيضاً؁
قامت متاجر صغيرة تبيع الشاى والأدوات المدرسية.
وبعض الغرف المبنية فوق المقابر قد اتخذها الناس
مساكن لهم؁ ولكن بالرغم من قوة الحرس وبالرغم من
الغول الذى تقول الأساطير إنه يسكن فى ظلام المقابر؁
فإن كثيراً من الأسر تعمل المقص فى أكفان موتاهم حتى
لا تبقى لها قيمة تغرى بالسرقة.

الفصل التاسع

القاهرة.. ظلال من مقدونيا

تتميز القاهرة عن بقية مدن أفريقية (وعن سائر مدن آسيا بالنظرة ذاتها) بأنها ظلت منذ مطلع القرن التاسع عشر عاصمة قطر، أيًا كان هو، فإنه متقارب من الدولة الحديثة. وليس من قبيل الإطراء خلعنا هذا الوصف عليها، فالدولة الحديثة تجمع بين ما هو طيب وما هو غير طيب. يكفي القاهرة أنها تضم ٣٠ محكمة بها ٦٥٠ قاضيًا ومستشاراً و ٣ سجون بها ٨ آلاف من النزلاء و ٦٥ مستشفى بها ١٣,٠٣٢ سريراً وما يزيد عن ١,١٠٠ من شرطة المرور، ليقال إن هذا كله لا يعكس أنها عاصمة فحسب، بل عاصمة تأخذ بالنظم الحديثة،

وهي أيضاً فريدة في أنها تمثل مجتمعاً شرقياً في صراع دائم
مثمر مع الغرب، لا تنازعها في ذلك مدينة استانبول
(وهي مدينة لا بد أن يقال عنها إنها غربية فهي مقامة في
أوروبا) فإن القسطنطينية كما عرفها القرن التاسع عشر
قد شهدت هذا الصراع ذاته ولكنه انتهى بالانسحاب،
فقد نقل كمال أتاتورك عاصمته الجديدة إلى بلد صغير في
قلب الأناضول، ولا أحد في مصر (اللهم إلا في شهر
أغسطس حين تصبح الإسكندرية بمثابة العاصمة الثانية)
يتبادر إلى ذهنه التخلي عن القاهرة.

وعلى مدى قرن ونصف - ما بين نابليون وجمال
عبد الناصر - تولت حكم مصر سلالة أجنبية واحدة بلغ
من تتابع توارثها أن أصبح يطلق عليها - تفخياً لها -
كالشأن مع بيوت الملك العريقة وفي التاريخ للعهد
الفرعوني - اسم «الأسرة الحاكمة» ومنشئ خطوط هذه
السلالة رجل مسلم من مدينة قولة في مقدونيا بشمال
اليونان، وكذلك إلى مقدونيا ينتسب منشئ الإسكندرية
العاصمة المتألثة لمصر البطالسة، وبعد أن انحدر حالها

وانكملت وأصبحت قرية صيادين لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف، أعاد إليها محمد علي - المنتسب إلى مقدونيا أيضًا - ازدهارها، ولكنه اتخذ من القاهرة عاصمةً للملكة. وكان حين مجيئه إلى مصر من أتباع السلطان العثماني، وبتكليف منه لصد زحف نابوليون، ولكنه قلب تبعيته إلى نظام حكم مبتدع فريد إذ أصبح يخص نابوليون بإعجابه الشديد، وتعاون أسلوب الثورة الفرنسية وأسلوب حكام الأقاليم المتخلفة في تحطيم الممالك في مجزرة وحشية انقسم امتدادها إلى مرحلتين، الأولى تولاها نابوليون بالقرب من قرية امبابية (التي اندمجت في القاهرة الكبرى اليوم وبها مسرح البالون) فقد أحاطت جنوده من حملة البنادق بالأمرء الشجعان الذين حكموا مصر لستة قرون، وفر من نجا من المعركة إلى صعيد مصر والسودان، انتظارًا - هكذا ظنوا - لعودتهم إلى مناصبهم وأملاكهم يوم يرحل نابوليون إلى باريس. ولكن محمد علي - وهو في بعض الاعتبار آخر الممالك وأنجحهم - دعا بقيتهم إلى حفل في القلعة وفتك بهم هناك. ونستطيع اليوم أن نشهد موقع هذه

المذبحة، إنه الممر الضيق المؤدى من القلعة إلى باب العزب. وكانت نجاة واحد منهم واسمه حسن بك من المواضيع التي هام بها المصورون في القرن التاسع عشر فرسموه، وفقاً لأسطورة شائعة - وهو يقفز بجواده من شرفة القلعة هاوياً إلى الأرض. ولكن الحقيقة هي على خلاف الأسطورة، وإن كان قد نجا فبفضل مرض أفعده عن حضور الحفل. واستمر القتل أيضاً في المماليك الذين كانوا متفرقين في أرجاء مصر.. فمن هم هؤلاء المماليك؟

إنهم في الأصل رقيق أبيض من شراء حكام مصر ليتولوا حراستهم. وكما حدث في الإمبراطورية الرومانية من تحول قادة الجند عن حراسة الإمبراطور إلى التسلط عليه يخلعونه متى شاءوا ويقيمون من شاءوا بدله، فإن هذا الحرس من المماليك المرتزقة بسط سيطرته على حكام مصر. وقد جاء هؤلاء المماليك من الأطراف الشمالية الشرقية لدار الإسلام وبخاصة من القوقاز وتركستان، وكانوا يتصفون بالهمة والحماس، وأحياناً بالتقى والورع، وأحياناً بالانتهازية الكلبية، ولكن محال

وصفهم بأنهم مصريون. ورأس المماليك يصبح هو السلطان، منصب قد ينتقل بالوراثة من أب إلى ابن، ولكن كان من المحبب لهم في المعتاد أن يتبنى السلطان مملوكًا أثيرا عنده، وكان هذا المملوك إما يقتل سيده أو يتآمر له ويحل محله حين يقتله مملوك غيره. ويمكن القول بأن نظام المماليك يرجع مبدأه إلى عهد صلاح الدين وهو كردى من أبناء القرن الثاني عشر، فإنه أقام هو وخلفاؤه نظام حكم أشبه ما يكون بنظام الحكم الاقطاعى فى الغرب، ولو أن فرق الجنس بين المماليك ورعاياهم من الفلاحين الصابرين سكان وادى النيل قد جعل هؤلاء المماليك أقل من بارونات القرون الوسطى فى فرنسا وانجلترا اهتماماً بالحقوق الديمقراطية، وإن أخطأنا عمداً فى حق التاريخ فأجزنا استخدام وصف الديمقراطية لعصر سابق لعصرها. ولما انهزمت مصر أمام الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ وشنق طومان باى آخر سلاطينها على باب زويلة قام الظن لبرهة بأن دولة المماليك قد دالت، على يد غزاة لا يقلون عتواً عن التيودور فى غزوهم لانجلترا، ولكن أعباء هذه الإمبراطورية التى اتسعت

فجأة ثقلت على الأتراك فرأوا من الأصلح أن تكون مصر بقرة يتولى المماليك حلب ضرعها لهم فبقيت هذه الزمرة متربعة على مقعد الحكم إلى نهاية القرن الثامن عشر وإن بقي لموظف تركي سيادة اسمية عليها.

ومن تركة المماليك التي أورثوها للقاهرة شيثان: هذه العيون الزرق والخضر في بعض الوجوه السمر، وهذا الحشد من الصروح الفخمة: مدارس ومستشفيات وفوق هذه وتلك مساجد بقبابها التي تتميز بها مقامة فوق قبورهم، كأنما انتقل إليهم بالعدوى، من روح مصر الفرعونية هذا الحرص المستهام بضريح لائق بالرقدة الأبدية، وهكذا أضفى الرواد على عاصمة دولة انكماش عدد سكانها من ٨ إلى ٢ مليون نسمة، فالقاهرة التي انتقلت من يدهم إلى يد نابليون وإلى يد مريده المقدوني لم تكن إلا نتفة صغيرة من قاهرة اليوم. ويرجع الفضل في اتساع هذه المدينة إلى أسيرة محمد علي، وإن تسعة أعشار رقعتها لم تعرف العمار إلا بعد انقضاء عهد المماليك.

ولم يشعر محمد علي في قرارة نفسه أنه مصري قط. ولو أن ابنه إبراهيم - هذا الجندي الصارم - كان يحس أنه قريب إلى أبناء العرب سمر الوجوه شأنه في ذلك شأن لورنس إذا راعينا واجب تبديل زمن بزمن. وكان محمد علي يتكلم التركية لا العربية، ويعد نفسه عثمانياً لا مصرياً، ولا حتى من مقدونيا. وكان له - كما للملك عبد العزيز آل سعود - وفرة من الأولاد، ولكنه كان في نفس الوقت من المعجبين بالمدينة الغربية الحديثة وأراد أن يقتبس كل تطبيقاتها فأنشأ الآلات البخارية وبنى الفنارات. والطابع الذي خلفه على مدينة القاهرة يستمد إشعاعه من القلعة، إذ شيد فيها قصره - قصر الجوهرة - بالقرب من باب العزب حيث تدوى صرخات أشباح الممالك الذين ذاقوا الموت ذبحاً. ويجانب من قصر الجوهرة مسجده المقام على قبره، وهذا المسجد لا يعد في نظر عشاق العمارة الإسلامية في القاهرة من أفضل نماذجها، شأن دار الأوبرا في باريس بين مثيلاتها. وبرغم أنه من طراز مستلهم من تركيا لا من مصر فإنه - في عاصمة مصر - يطفئ على أفقها الشرقي.

وأوصل محمد على الاسكندرية بالقاهرة بحفره ترعة
المحمودية، وبنى القناطر الخيرية عند عنق الدلتا ولكنها
— كالشأن في أغلب منجزاته — كانت مهتزة الدعائم، فلم
يتم لها رسوخ إلا في التسعينات من القرن الماضي. وفي
قصر الجوهرة لوحة تصور مجدد مصر وهو قاعد،
كما نجده قاعدًا في الصورة القلمية التي رسمها له
روبرت كيرزون. قال:

«وجدنا الباشا حين لقيته شيخًا عفيًا متين البنيان،
عريض الكتفين، عريض صفحة الوجه، واسع انفتاح
المنخرين، تضيف عليه نظرتة الحادة الوثابة، هيئة أسد
أغبر هرم. تحدثنا ثلاثة أرباع الساعة على مدى إمكان
مد السكة الحديدية بطول برزخ السويس. وكان هذا
المشروع أكبر هم يشغل باله حينئذ. ولكن الحادثة التي
سجلت هذا اللقاء بقوة في ذاكرتي والتي دهشت لها لأنها
تمثل عادات تختلف عن عاداتنا كل الاختلاف لم تكن في
ذاتها إلا حادثة هينة، فقد رأيت الباشا يطلب منديله
فأخذ يبحث عنه فيما حوله، ثم ينقب في جيوبه، فلم

يجده. وكان أثناء بحثه لا يكف عن التعبير عن دهشته
وحيرته بهتافات مختلفة، استجاب لها آخر الأمر خادم
سعى إليه من أقصى الحجرة وقال له « ابحث عنه في
جيبك الآخر » فأجابه الباشا « فعلت فلم أجد فيه
منديلي » رد عليه الخادم « إذن عد إلى البحث عنه في
جيبك الأول » فلما أجابه الباشا « ليس عندي منديل » أو
بكلام من هذا القبيل، كان الرد السريع الذي أتى إليه
من الخادم « بل عندك منديلك » وتكرر القول والرد
« ليس عندي منديل » - « بل عندك منديلك » وانتهى
الأمر بأن تقدم هذا الخادم إلى الباشا وأخذ ينقب في
جيبي سترته دون أن يجد المنديل، فأخذت يده تدور
حول خصر الباشا يتحسس المنديل فلعله قد طواه طرف
الشال الذي يتلفع به ولكن بلا جدوى، حينئذ أمسك
الخادم بسيدة مولاه وأماله إلى اليمين فوق الأريكة ونظر
تحتة ليرى ما إذا كان قد قعد على منديله، ثم عدله وأماله
من جديد إلى اليسار، وظل الباشا طوال هذه المناورة
العجيبة على أتم ما يقدر عليه من هدوء واستسلام، ثم
دس الخادم ساعده إلى الكوع في أحد جيوب سرواله

الكبير المنتفخ وأخرج علبة نشوق ومسبحة وأشياء أخرى صفها على الأريكة، ولكنه لم يجد المنديل، فانتقل ساعده إلى الجيب الآخر ومدّه إلى عمق مهول حتى أخرج من قاع الجيب المنديل المفقود، وفي حركة ملؤها التوقير والتجلة دفعه بقوة إلى يد الباشا ثم تراجع إلى الطرف القصى من الحجرة حيث كان».

هذا وصف جدير بالاستعادة ونحن نستعرض ما كان لهذا الرجل العظيم من أثر ووقع على العاصمة التي اغتصبها، وكذلك ونحن نستمع إلى الهجوم عليه من المنادين بالوطنية الحديثة. قد يكون محمد علي نهازاً للفرص، يمضى الى غاياته بلا رحمة، وقد تكون اصلاحاته سابقة لأوانها، ضحضاة لأنها انبعثت من دوافع باطلة - إذ كان يطمع ان يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية يقيمها لشخص - ولكن رجلاً له مثل هذا المسلك السامع وهذا التحرر من مراسم المنصب الرفيع خليق بأن يستجيب المصريون لسحره، ومثل هذه الخلال لا تزال إلى اليوم في جميع البلاد العربية هي التي تمهد

لحكامها طريق النجاح.

لم يرث أحد من ابنائه عبقريته وانتباهه للشرق وقد وجد اسمه اسوا تخليد له في القاهرة «فإن اسماعيل هو الذى أطلق اسم محمد على على شارع شقه فيها بتأثير من ذوقه الفرنسى، فجاء أشد شوارع العاصمة دماة واجتراء فإنه هتك احشاء حى من أجمل أحياء القاهرة، وهدم قصورًا وأزال حدائق وقوض جانبًا من مسجد عتيق لا لشيء إلا لكى يسلم للشارع تمام امتداده على خط مستقيم، وهذا حرص سخيف عديم الذوق» هكذا قال ستانلى لين بول. ولكن ما يشفع لهذه الفعلة النكراء من إسماعيل هذه البواكى التى تجعله شبيهًا بشارع ريفولى فى باريس. ولما جاء عصر فاروق حفيد اسماعيل أصبح الطابع الشرقى لشارع محمد على ينم على التخلف وانقطع انتظام البواكى، فاختفى أكثرها وأصبح جريحا متناثرًا، وأصبح - باسمه الجديد شارع القلعة - من أقبح الشوارع فى مدينة جميلة.

وحين ضاق أهل القاهرة ذرعًا لخضوعهم لحكم سلالة

محمد على. كان مطلب ثأرهم عند قصورهم، فقصر عابدين - وهو من طراز قصر بكنجهام وصورة مصغرة منه - يطل على ميدان كبير. هنا كان لتوفيق بن اسماعيل نقاش مثير مع الضابط عرابي - مثيل عبدالناصر في الثمانينات من القرن الماضي. أصبح الآن يسمى بميدان الجمهورية وينقلب إلى سرادق مكبب مهول تنصت فيه الجماهير الغفيرة إلى الخطب احتفالاً بعيد الثورة في شهر يوليو من كل عام، أما القصر ذاته فقسم منه تشغله إحدى الوزارات «وزارة الإصلاح الزراعي» وقسم آخر يحتله ناد للشباب، وقسم أفرد ليكون متحفاً. وقد بيع أغلب أثاثه الفاخر، وما بقي منه ينم عن ذوق اسماعيل الذي كانت مخصصاته من خزانة الدولة تفوق مخصصات الملكة فيكتوريا، ولا تزال معلقة على الجدران لوحات زيتية تمثل زوجات إسماعيل مرتديات ملابس عقيات طبقة السادة في أكسفورد، وبقيت الأدوية في الحمام الملكي كما تركها فاروق عند تنازله عن العرش، وبقي الميزان كذلك، ذكرى حزينة لبدن يود أن يذوى كما ذوت سمعة صاحبه. أما القصر

الذى احتفل فيه اسماعيل بالامبراطورة الفرنسية
ايوجنى فكان لمدة طويلة مسكنا فى المدينة لأسرة مسيحية
من الصعيد، هى أسرة لطف الله، وبقي القصر بقدر
ما كما كان، وأن أقيمت على أرضه شاليهات مترفة.

وقصر الامير محمد على (ولى العهد الى أن رزق بولد
من زوجته الثانية ناريمان صادق قبل خلعه بقليل) قائم
الى اليوم بجزيرة الروضة، من وراء أسواره العريضة
دروب يحفها نبات الصبار أو تظللها أشجار البانيان،
لا ينساها من يجوس خلالها، تصلح أن تكون مسرحا
لفيلم سيريالى أن صنعت هذه الافلام فى مصر. وبالقصر
مجموعة ضخمة من صور فوتوغرافية للملك الدول
ورؤسائها عليها توقيع أصحابها، وفقا للمراسم. وينقلب
طابع القصر المستلهم من ذوق دمشق الى طابع عهد
ادوارد فى إنجلترا إذا انتقلنا الى الحمام ورأينا من خزفه
زخارف على هيئة أزهار. أقام الأمير على أرض قصره
متحفه وهو خير مكان تستعرض فيه السجاد الشرقى،
ولوحات الملوك ورؤساء الدول، والمصاحف المزخرفة،
وأشياء أخرى ثمينة من جمع أمير شرقى مطلق السلطان.

وهذه الفقرة التي كتبتها لها صدقها، ولكن السرعة التي يتصف بها تغير الاحوال في الشرق الجديد ما لبثت أن جعلت كلامي محمولا على الماضي، فقد عقلت على باب القصر لافتة بأنوار النيون تعلن أنه هو أيضا أصبح فندقا باسم «عمر الخيام المنيل» وقطعت الشاليهات امتداد حدائقه ولم يعد في الإمكان صنع فيلم سيرى إلى كالذى تحدثت عنه فإن نبات الصبار قد اذبله غشيان السياح لدروبه وان كنا - أنا وانت - لم نهضم بعد نصيبنا من متعته. وهكذا انقشع السحر على رنين العملة الصعبة.

ولن تجد في القاهرة من يغضب لثراث القرن التاسع عشر وهو يتعرض للزراية به والترحيب بتقويضه، وهذا حال يدعو للأسف ولو أنه مفهوم. فإذا كان هذا التراث يعد في نظر الانجليز في بلادهم منحدرًا عن عصر الملكة فيكتوريا عصر القوة السيادة، فإنه في نظر المصريين ينحدر عن عصر إسماعيل وتوفيق عصر الضعة والمهانة. أما ابراهيم فلأنه قائد عظيم فهو لا يزال يحتفظ بنصيب

من الاجلال كما يحتفظ بتمثال له أمام دار الأوبرا نراه فيه فارسا مهيبا ممتطيا جواده، على حين أن سليمان باشا، هذا الفرنسي الذي اعتنق الاسلام وأصبح معروفا - إلى جانب ما يعرف عنه - بأنه أيضا جد نازلي أم فاروق فقد استمر تمثاله - الذي يمثله بسرأويله الواسعة وبطربوشه - قائما حتى سنة ١٩٤٦ ثم أزيل من الميدان القريب من محل جروبي حيث كان يعطى بعض ظهره للسيدات البدينات المندفعات صوب الشيكولاته، ومن حل محله ؟ تمثال باهت الشبه بطلعت حرب مؤسس بنك مصر.

والذين يهيم ذوقهم بعطر الماضي الحديث هيهات أن يجدوا لهم غنيمة تفوق غنيمة زيارتهم لمتحف السكك الحديدية بالقاهرة، ما دام باقيا. أنه منزو بالقرب من محطة باب الحديد ويضم ثروة كبيرة من النماذج والصور الفوتوغرافية، تشهد باستباق مصر لدخول عصر السكك الحديدية في وقت مبكر. وقد وصفت لك من سابق محمد على وهو يباحث كيرزون في مد خط حديدى، وقد تم مد خط بين القاهرة والاسكندرية سنة

١٨٥٦. ويحتفظ المتحف في أحد مخازنه الجانبية بالقطار المسمى « بالكشك » الذى كان مخصصا لسعيد باشا والى مصر الذى أعطى الإذن بشق قناة السويس، أنه بين القطارات عدیل سيارة رولزرويس بين السيارات وهو من انتاج مصانع ستيفنسون.. أول المصانع فى إنشاء السكك الحديدية إطلاقا - وتم تسليمه سنة ١٨٢٦. وقد طلى القطار من الخارج بألوان زاهية جعلته براقا كقطع الكريستال البوهيمى إرضاء للذوق الشرقى، وفرش داخله بالطنافس فامتزجت مع الآلات الملمعة امتزاجا غريبا. وكان سعيد باشا - الذى كان بين أفراد أسرته الذين لا تنقصهم البدانة أكثرهم امتلاء - مشهورا بأنه كان يقود هذه القاطرة بنفسه فى زيارته لاقطاعات أقاربه وأصدقائه.

أما عمران القاهرة فالفضل الأكبر فيه راجع إلى إسماعيل. تدين له إحيائها السكنية الجديدة بنصيبها من رواد المعمار الإيطالى، وأحيانا بنصيبها من رشاقته أيضا. من أجل إسماعيل جرى إطلاق اسمه على هذا الميدان الواسع الذى كان فيما مضى تشينه الثكنات البريطانية

فتحول إلى منظر فخم بإقامة فندق الهيلتون مكانها. ولقد أقيم في سرّة هذا الميدان قاعدة تمثال حمراء اللون استمرت خاوية ولن يعلو قممتها تمثال إسماعيل وبذلته الرسمية، وتبدل اسم الميدان من ميدان الإسماعيلية إلى ميدان التحرير.

أما دار الأوبرا فهي إلى اليوم درة منجزات إسماعيل، بنيت على عجل من الخشب والجص. لتلحق إفتتاح قناة السويس، ولكن تعجل الحاكم الشرقي لم يجد مجازاة له عند الملحن المكلف بإعداد أوبرا عايدة. لليلة الافتتاح، فلم يستطع فردى إتمامها، ومثلت بدلها أوبرا «ريجوليتو». وقد حضرت يوم ٢٨ إبريل سنة ١٨٦٤ أداء بديعاً لأوبرا «لاترافياتا» مترجمة إلى العربية فقدم إبراهيم رفعت نصّاً بلغ القمة في قابليته للغناء، ولكن السيدات اللاتي استضافتهن فيوليتا في صالونها جئن من عصر أشد ديمقراطية من عصر إسماعيل الذي لا يزال الحرف اللاتيني الأول من اسمه محور الزخارف المعدنية المذهبة على مدخل دار الأوبرا.

الفصل العاشر

القاهرة.. طابع الأجانب

يجيء الأجانب في الصف الثاني بعد أسرة محمد علي،
شهم، وربما بتوالس معها - حققوا للقاهرة، ولأنفسهم -
خاتم كثيرة - فالبارون هرتز يدين له هواة الفن بالشكر
التقدير لأنه كان بمثابة القلب المحرك للجنة حفظ الآثار
للإسلامية، فلولاه - وهذا مثل من عديد - لبلى السائر
لخشبي ذو الزخارف الدقيقة في مسجد المارداني وتحول
لحى تراب.

وهذا بارون آخر - البارون إيمان - كان المهمة
الدافعة لعمران هليوبوليس الضاحية الشمالية للعاصمة،
انستت سنة ١٩٠٦ ويبلغ تعداد سكانها اليوم ١٢٢ ألفاً.

وقد انفق البارون إمبان أرباحه من شركة الترام في بناء قصر له على الطراز الهندى، يعد من أغرب الأبنية في القاهرة، إنه من الخارج صورة مطابقة تمام التطابق لأحد معابد مادورا في الهند بيرجه الشاهق المخروطى وتمثيله على هيئة القيلة، وزخارفه على شكل رءوس مفرعة لمخلوقات خليط من حيوان وبشر. أما من الداخل فقد زود البارون قصره بمقاعد وأرائك من ذوق الطبقة الوسطى في بلجيكا، واتخذ من الشباك ستائر نوافذه. وإمبان مثال للمغامرين الأجانب الذين وجدوا في النظام الاقتصادى لمصر قبل الثورة مرتعاً خصباً لهم، لم يكن بطبيعة الحال محبوباً لأن تشبهه بالأمرأء لم يأتلف مع سماحة الشرق. وكان يهيم بالمعارك، ولكنه حظى بصداقة الملك فؤاد، فترجم هذا العطف إلى امتيازات كبيرة غنمها.

وهناك ملك آخر شهد كيف يخفق البارون إمبان أحياناً قليلة، فقد سبق له في الريفيرا في فرنسا حوالى سنة ١٩٢٠ أن قدمه بعض معارفه إلى الملك الفونسو الثالث عشر وهو لا يزال على عرش إسبانيا، ثم قام

الملك بعد ذلك بزيارة مصر زيارة خاصة متخذاً له اسماً مستعاراً، فدعاه البارون إلى العشاء في قصره الهندي، وقبل الملك الدعوة، ولما اجتاز صفوف الرؤوس المفزعة وجد بقية الضيوف جماعة من أصدقاء البارون القدامى، كلهم من محترفي القمار في النوادي الليلية، أو من ارتستات الكاباريهات، وجلس الملك إلى المائدة، وكان جلوسه هو كل شيء فعله، لم يأكل، لم يشرب، لم يتكلم وكفى أن يدوم هذا الصمت خمس دقائق حتى يصبح جيرانه كأنهم خشب مسندة، ولما انتهى العشاء قام الملك وهو لم يتحول عن صمته وانصرف.

ومنذ الثورة لم يفتح القصر الهندي الذي صار مثل فيل أسمر في حديقة خشنة ماتت أشجارها التي لم تجد من يدفع ثمن مياه رها. وقد أبدى أحد الأمراء السعوديين مرة استعداداه لتحويله إلى استراحة لزملائه السعوديين عند حضورهم إلى مصر للتمتع بجوها، ولكن المشروع أهمل عندما تبينت السلطات البلدية حقيقة ما أعدته له هذه الاستراحة.

ولكن ما بقى واضحاً من نفوذ الأجانب هي هذه المطاعم والفنادق ذات الأساء الإنجليزية ففي مطعم «سان جيمس» - الذى اشتهر وانفرد بتقديم جمبرى البحر الأحمر - يعرض عليك صاحبه بزهو قصاصة ترجع بك إلى الماضى، إنها من جريدة «الإجيشيان جازيت» فى عام ١٨٩٥ تقول:

«سيطبق المحل فى مكانه الجديد إلى الموسم القادم نظام المعيشة الفردية حيث يجد السادة المقيمون حجرة للنوم مع الافطار تماماً كما هو متبع فى حى وست إند بلندن فى المناطق المجاورة للنوادرى الراقية الخاصة».

واختفت التقاليد الأنجلوسكسونية تماماً من فندق شبرد. اللهم إلا اسمه، ويرجع عهدها إلى العصر الفيكتورى حين أنشأ هذا الفندق رجل مغامر جسور وجعله استراحة للذين ينزلون فى الإسكندرية من سفنهم ويغادرونها بالقطار ليلحقوا بيوأخرهم فى السويس. لقد كان فندق شبرد القديم معقلاً من معاقل رجال الإمبراطورية العظام، وكانت الجرائد تهتم بنقل كل

ما يدور في أرجائه حول أثاثه الخيزراني ونخيلاته
المغروزة في قصاريها. فمثلا اهتمت الجرائد بحفلة رأس
السنة الجديدة لعام ١٩١٥ حيث دار الرقص حثيثاً في
القاعة المصرية بالأزياء الغربية المتدعة، وفي نصف
الليل.

«أعاد صوت تردد في القاعة بعض الضيوف
المجتمعين إلى الواقع حيث شاهدوا نموذجاً كاملاً لطائرة
ترتفع بلطف من القاعة إلى أعلى نقطة في صالة الرقص،
وقد جلس فيها طفل ظريف بأجنحة شفافة وتكلل وجهه
ابتسامة وجهها إلى الحاضرين جميعاً. واطلقت حمامات
تحمل أشرطة عليها التمنيات الطيبة كما قام الجميع برمي
كرات ثلجية كتذكارات لطيفة، ولكنها لم تكن بالليننة في
حالة الضابط الصغير الذي طارت كرتة داخل القاعة
وأصابت وجه الجنرال ماكلارن. وكان وقتاً عصياً
سرعان ما خففه الجنرال بكلمة منه رقيقة. وأخيراً انتهى
كل شيء ونامت القاهرة ملؤها الحيرة والتعب..
والسعادة»

أما عن أثر فرنسا فإن لغتها كانت - حتى في ظل الحماية البريطانية - أكثر تداولا من اللغة الانجليزية، ولا تزال اللغسيه الفرنسية قائمة ولا يزال الجزويت يحتفظون بمعاهدتهم، والمجمع العلمى المصرى هو الوريث غير المباشر للمجمع الذى أنشأه نابليون. وهناك جامعة أمريكية، ولا تنفك تتسع، ويمثل طلبتها بعض مسرحيات تنسى وليامز.

وتتناثر في القاهرة بنسيونات متواضعة للأجانب الوافدين من وسط أوروبا، كصديقى يانكو، وهو ارستقراطى من سلوفاكيا يهوى الرسم، ويقطن في شقة تطل على وزارة الأوقاف. إنه يضع على عينيه نظارة سوداء، ويعيش مع كتبه ومجموعته من نبات الصبار، ويشرب الزبيب في شرفة يرقب منها المارة، ولا يخرج من داره إلا ليشتري حاجته من سوق الخضار المسقوف في باب اللوق أو مزيدًا من الزبيب من بقال يوناني قريب من داره، ولا يفوته حضور افتتاح معارض الرسم العديدة التى أصبحت من سمات حياة القاهرة اليوم. أما رسومه هو فبالألوان المائية على ورق غير مستو، وله

أعمال عديدة تدور حول موضوع واحد هو «الأحداث
المشردون» وقد علقت بصالة الخريف. ولما سألتها عن
الطابع المصرى فى الرسم أجابنى «ماذا تقول ؟ ليس
عندنا إلا جزر قليلة أصيلة ضائعة وسط بحر من التقليد
الفاسد كما كان الشأن فى الإسكندرية فى أواخر حكم
الإغريق، ولا غرابة، كان الأمير يوسف كمال حين أنشأ
مدرسة للفنون الجميلة سنة ١٩٠٨ قد اختار معظم
مدرسيها من الفرنسيين، ولكن العجيب أن المصريين بعد
انقطاع عن الفنون التشكيلية على مدى ١٤ قرناً -
باستثناء العهد الفاطمى - قد أخذوا الآن يعودون إليه
بحماس كبير. وخديجة رياض - حفيدة أحمد شوقى
الشاعر - تعرض لوحات تجريدية ولكنى أفضل شغلها
فى الحلى إنه بديع، ورءوف عبد المجيد يحيل أكواخ
الشواطئ إلى تكوينات تجريدية فكأننا بإزاء عالم صامت
منفرد لا تطيب له النفس وأفضل المصورين عندى هى
عفت ناجى، وقد اشتهر أخوها محمد برسم هيلاسلاسى
فى الحبشة قبل الحرب الإيطالية، وتستلهم عفت رموز
السحر - هذا العنصر الدائم فى حياة مصر - السحر

الأصيل الشرائى، لا السحر المدعى طلباً للتصاحب
ولبريق التظاهر، ثم تحيلها إلى رسوم، وهى لا تعنى
بمقاييس الذوق أو الموضة الشائعة، وهما مطبان خطران
على الفنان، ورموز عفت السحرية هى من تشكيلات
خشبية بارزة، فلها أبعاد ثلاثة، وتصبغها بدهان لامع
كالفلورسنت»

أعود إلى صديقى يانكو، إنه تحول الآن إلى التصوير
الفوتوغرافى، وقد ظل مرة ساهراً طول الليل ليلتقط
هذه اللحظة الخاطفة التى يزهر فيها نبات صبار مرة كل
ثلاث سنوات.. ويقول يانكو بشيء من المرارة «الزهور؟
نعم! القاهرة ملأى بمتاجر الزهور، ولكنها عند المصريين
أشياء توضع فى سلة مفضضة، محزومة بشريط طوله عشرة
أمتار، وترسل لحفل زفاف!»

وأقول من جديد أن هذا الذى أكتبه قد عفى عليه
الزمن، فقد تلقيت أخيراً من يانكو بطاقة بريد مصورة
وعلى طابعها خاتم ميونخ.

الفصل الحادى عشر

القاهرة.. الطابع الإسلامى

العمارة الإسلامية التى ابتدعتها القاهرة لا تجعلها فحسب مجرد مدينة جليلة المكانة فى هذا الفن، بل تجعلها مدينة فريدة ليس لها مثيل. وقد رأيت أن أنسب هذه العمارة إلى الإسلام، لأن نسبتها إلى السراقة - كما فعل القرن التاسع عشر دائماً - منافية للدقة والصواب، ولأنه كما يقول أئمة المتخصصين اليوم، لا يجوز إطلاقاً نسبتها إلى العرب، وها هو ذا الأستاذ كرسويل يستخدم عبارة الفن المسلم، وقد يغتفر لى أن أُلجأ إلى الصفة المشتقة من كلمة «الإسلام» لأنها الاسم الذى يطلق على

هذا الدين وحضارته، فهي أفضل عندى من كلمة
«المسلم» التى هى صفة من يعتنق الإسلام، فمن محامد
النسبة التى استخدمها أنها تنطبق على أبنية أنشأها
معمارىون مسيحيون.

وحتى القول بان هناك مدناً أخرى تزهو كل منها
بمثال للعمارة الإسلامية أو فى صدقاً وكمالاً هو قول
موضع نظر. حقاً إن كل من زار بورصة (فى الأناضول)
ورأى عمائرها لا يسعه الإعجاب بألوانها الزاهية، وإن
عشاق نقاء الشكل فى الفن المعمارى يهللون لقصر
الصيد المسمى بالأخضر (فى لواء كربلاء) أو لبقايا
قصور سأمرا (سر من رأى) التى بنيت فى القرن التاسع،
وإن ضريح تاج محل الذى تنعكس واجهته على الماء له
من المعجبين به قدر ما له من الهائمين بالتقاط صورته،
ولكنها جميعاً إما أبنية فرادى، وإما - كما هو الحال فى
بورصة - أبنية من نتاج عصر واحد. أما القاهرة فهى
وحدها التى تشهد بتطور متصل قرناً بعد قرن، يتدرج
من السذاجة عبر البساطة إلى تعقيد التركيب، ومن
الإزدهار العفى إلى الذبول السقيم. وهكذا فإن سجل

حضارة بتمامها يتكشف على الحجر والآجر والخشب طوال زمن يزيد عن ثلاثة عشر قرنًا هو الآن معروض للناظرين. وقد كانت بغداد خليفة بأن تنافس القاهرة، ولكن بغداد خربها المغول بعد سنوات قليلة من بناء قصر المستنصرية المشهور بانسجامه اللطيف. لذلك إذا أردنا أن نتذوق الفن الإسلامي بغير أن تفسده رتابة التفاصيل كما في قصر الحمراء، وبغير أن يشوهه تعمل مبالغ فيه - كما في عمارة الهند - فينبغي لنا، كما يقول ستانلي لين بول - أن نتأمل مساجد القاهرة وأضرحتها.

وإذا كانت القاهرة بهذا النمو العشوائي لأحيائها السكنية تبدو مختلطة المسالك، فإن ميزتها أنك إذا تأملتها بصبر وجدتها لا تكشف لك عن اختلاطها الذاتي فحسب. بل تكشف أيضًا عن اختلاط جانب دخیل وجانب أصیل لحضارة تتمركز في القاهرة، وهي إذ تكشف تفسر. إن مشوارًا طويلًا في يوم واحد (وإن كان من الأفضل تجزئته على أيام عديدة) هو بمثابة درس لك، فتفهم منه هذه الحضارة المنسوبة إلى الجنوب الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط، كما تفهم تطورها.

وينبغي أن يبدأ المشوار من الطرف الجنوبي للقاهرة
بنت اليوم. وأفضل وسائل القيام به هو ركوب قطار
ضواحي من محطة باب اللوق (وثنم التذكرة في الدرجة
الأولى ثلاثة قروش، أى مايعادل ستة بنسات) ثم تنزل في
المحطة الثالثة.. محطة مار جرجس، فتشرف على مدخل
ضيق لكنائس لا تخلو من دمامة. أحن رأسك تحية لها
والحظ جدارين مستديرين بقيا من حصون القاهرة
الرومانية، واجعل عزمك زيارة هذه القاهرة في غد، ثم
امض في طريقك واسلك درباً معتماً مترباً يحاذى السور
الذى يضم الكنائس، فإذا بك تصل إلى أقدم مسجد في
القاهرة.

وقد تم فتح مصر سنتى ٦٤٠-٦٤١م وفاتها هو
عمرو بن العاص، وكان فى شبابه من أصحاب الرسول
الذى توفى سنة ٦٣٢. وقد جاء عمرو من الأراضى
العربية حيث - ونحن ننقل مرة أخرى كلام الأستاذ
كرسويل - «لم يكن لأهلها العرب قبل الإسلام -
فيما يبدو - إلا فكرة بدائية عن فن العمارة، فلم يكن
معبدهم قبل سنة ٦٠٨ يزيد عن أربعة جدران فى قامة

الرجل تدور حول بئر زمزم، وبعبارة أخرى كانت الأراضي العربية تمثل فراغًا معماريًا تامًا أو يكاد». وعمرو الذي شرب من ماء زمزم كان قائدًا عبقرًا، سلس الإيمان بدين سلس، فكان في حاجة إلى جامع يؤدي فيه صلاته. لاشك أنه رأى هذه الكنائس التي مررنا بها لتونا على الصورة التي كانت لها في الأصل، إنها تختلف عن الكنائس الواقعة إلى الشرق من مصر في سوريا وفلسطين فهي بادية التقشف مكنونة، تعكس موقف الكنيسة القبطية من العقيدة بميلها إلى الاختصار في غموض على الذات.. وقد خصصت سوريا وفلسطين بالذكر لأن المسلمين ظلوا زمنًا طويلًا يشاركون في كنائسها، يصلون في جانب، ويصلي المسيحيون في الجانب الآخر.

واليوم في الموقع الذي تدبر فيه عمرو كيف يفى بحاجته، لا نرى إلا سورًا عظيمًا من الآجر المغطى بالجص، كأنه مهجور، له ثلاثة أبواب، فإذا دخلنا وقع بصرنا على مساحة مكشوفة أرضها من الرمل، هذا البهو في الوسط يسمى بالصحن، إنه مصطلح فني يحسن بنا أن

نتذكره، وإلى أمام المدخل من بعيد نرى القبلة ومن حولها الأروقة، وهي غابة من الأعمدة غير المتشابهة تتفتح عن الصحن من خلال عقود تبلغ العشرين. وهذا الجامع الفسيح العادى البسيط، كان فى الأصل معداً فى المحل الأول لأغراض عسكرية، لفتح لرجال الجيش المؤمنين أن يجتمعوا داخل سور ليقموا صلاتهم فى أمن. لم يبق منه اليوم إلا أشباح تتراءى فى الجامع الذى نزوره، فلا يكاد يكون قد بقى منه قالب واحد من الآجر أو عمود مستعار من بناء آخر، لأن جامع عمرو كان يوم إنشائه ضئيلاً بالقياس إليه اليوم، ضئيلاً ليناسب مدينة الخيام (الفسطاط) التى استحدثها عمرو خارج بابليون المسيحية. هو اليوم مساحة ضخمة على هيئة مربع، يبلغ طول ضلعه ١٠٠ ياردة، أما زمن عمرو فكانت له أربعة أضلاع غير متساوية (٢٩ فى ١٧ ياردة) وكانت أرضه مكشوفة مغطاة بالحص، وعلى قوائم من جذوع النخل سعف من الجريد المغطى بالطين، كما كان حال بيت الرسول فى المدينة، أما الجدران فكانت من اللبنات. وبعد ثلاثين سنة تجدد بناؤه. ثم أهمل وتهدم ثم نجد مرة أخرى

إلى زمن محمد علي، وهو اليوم أفضل بداية لجولة في القاهرة الإسلامية.

فإذا خرجنا وتلفتنا نبحت عن سيارة أجرة (وعسير العثور عليها في هذا الحى الفقير) ورضينا بالسير على الأقدام، وجدنا أنفسنا نطأ أرض أول موقع للقاهرة الإسلامية. كانت مدينة من الخيام نصبها البدو.. حقا إنه ليناسبها اليوم ما نراه من منظر أكوام النفايات وصفوف القبور ودكاكين رثة صغيرة تبيع أوان فخارية بدائية.

وكانت حركة العمران في القاهرة الإسلامية تتجه دائما إلى الشمال.

وبعد ٢٠٠ سنة من تأسيس عمرو بن العاص لمدينة الفسطاط وإلى الشمال منها مسافة ميل واحد، انشئت المدينة الإسلامية التالية على يد وال للخليفة العباسي. فقد جاء ابن طولون من سامرا (سر من رأى) التي شيدها الخليفة المعتصم، وقد أعياء تتابع الصدام في بغداد بين رعيته من العرب وجنوده المرتزقة من الأتراك، مدينة لم يسبقها في الضخامة والطموح إلا مدينة روما العتيقة،

فقد كانت فسيحة الطرقات، تتقاطع متعامدة، ولا يزال تخطيطها الهندسى بيناً عند تصويره من الجو، ما أشبهها حينئذ بمدينة برازيليا اليوم. ولأن ابن طولون، وهو نفسه من الأتراك - قد جاء من هذه المدينة الكبيرة، فقد بدت الفسطاط للعين مدينة صغيرة محشورة، وكذلك وجد أشباعه جامع عمرو - رغم أنه كان قد زادت مساحته - أصغر من أن يفي بحاجتهم لأداء صلاة الجمعة. أين هو من جامع سامرا الذى كان يتسع لستين ألفاً يصلون جماعة معاً.

وهكذا مضى ابن طولون سنة ٨٧٠ فى إقامة مدينة جديدة يكون فيها قصر له وميدان صوالجه (اللعبة بالكرة من على ظهور الخيل، أى لعبة البولو الحديثة). خلة واحدة تؤلف بين العرب والأتراك وهى عشق الخيل، ولكن الذى كان يؤلف قبل كل شىء بين ابن طولون ورعيته من المصريين هو الدين الإسلامى الذى يطرح الفوارق القومية التى يتعصب لها العصر الحديث وتلج عليه إلحاحاً شديداً. وكان ابن طولون متديناً، تقياً، ورعاً.

وها نحن نذهب اليوم لزيارة جامعته.
حقاً إن وصوله إلينا سليماً يعد من الخوارق، هذا
المربع المهيب خليق بأن تكون روعتنا له مماثلة لروعتنا
لمعبد البارثينون. بل هو عندى يوحى بفيض أكبر من
القداسة، إنه أميل فى الشبه إلى معبد فرعونى منه إلى
معبد إغريقى، فهو يخفى جماله من وراء أسوار لابد لمن
يؤمه من المؤمنين من اجتيازها. وهو مقام على تل صغير
ليكون بمنجاة من ماء الفيضان، ولكنه لا يطاول
الأكروبول فى الارتفاع، فانت تصل إلى مدخله عبر
طرقات زاخرة بالضجة والزحام - وقد نظمتها البلدية
على نحو يكاد يكون دميماً. فإذا جاوزنا المدخل الفينا
أنفسنا وقد شملنا جو يوحى بالسكينة والبساطة وتجانس
العناصر، وينكشف الصحن للسماء فتحرقه الشمس
وتجلله بالصفار. وفى وسط الصحن فسقية للوضوء تعلوها
قبة ترجع إلى سنة ١٢٩٦، وهى أقل قيمة من القبة
الأصلية التى كانت مقامة على عشرة أعمدة من المرمر،
طلباً للجمال وحده لا للنفع، فنحن نعلم أن ماء الوضوء
للموع المصلين كان مبدولاً ميسراً من وراء الجدار الغربى .

للجامع الأصلي. إذا كان الصحن هو بمثابة الصحراء
فالفسقية هي الواحة والعقود هي الغابة التي ترمز لما في
النفس من تشابك المنازع المتضاربة، فيطالعها في ظلال
الأروقة جو رطيب يشعشع فيه الجذل الروحي ويخيم فيه
السكينة الداعية إلى الاستغراق في التأمل والاستعبار،
فالمسلمون الذين أخضعوا صحارى الشرق الأوسط لم
يألفوا الغابات إلا قليلا، ورأوا غابات النخيل على
شاطئ دجلة وغابات شجر الأرز في جبل لبنان، إلف
نادر وقصير الأمد، فهو يتوهج في الذاكرة كما يتوهج
القرآن الذى نزل في مكة قنينة الرمال كلما تحدث عن
الحدائق والجنان، فالسناء والصحراء والماء والغابة، هذه
الأشياء الأربعة إنما توحى بشيء خامس ينطوى في
وجوده وجود كل الأشياء: الله. فأنت في هذا المبنى
لا تستشعر الله في رؤيتك لتمثال - فليس في الجامع طبعاً
تماثيل - أو لتفاصيل من زخارف، ولو أن الزخارف
الجزئية حول الشبايك بديعة الجمال، بل تستشعره في
هذا الانسجام الكامل المطلق حيث لا عوائق بارزة
وحيث تجد كل حنية من حنايا الروح رمزها..

وفي المساحة التي أضيفت للجامع وفي حوض أسواره
العالية تقوم مئذنة من الحجر الرملي، كأنها مسخ لطراز
معماري قديم، فنصفها مربع ونصفها اسطوانى. وقد
تعددت واختلفت الآراء في تعيين هذا الشكل العجيب،
فهناك رأى يقول إن ابن طولون كان رجلاً منصرفاً إلى
عمل نافع أو متحفزاً له، يكره البطالة والمتبطلين وكان
جالساً ذات يوم يتحدث عن جامعه وكيف يريد أن
يكون من طراز جديد غير مسبوق وأن تتمثل الجودة في
استغنائه عن الأعمدة لأنها تنتهب عادة من الكنائس،
فراه جلساؤه يلهو بورقة في يده، ويلفها في غير مطلب،
فلما أحس أنهم ضبطوه وهو يعيث أراد أن يبرهن لهم أنه
كان منصرفاً إلى عمل نافع يتدبره، وقال لهم من فوره
«اعملوا لى مئذنة على هيئة هذا المخروط الذى فى
يدى».

ولكن التعليل الأقرب للعقل هو أن تذكر البرج
المخروطى الهائل فى جامع سامراء، وهو نفسه أحد المناظر
العراقية حيث كان لا يزال برج زيجوارت فى بابل قائماً

في زمن ابن طولون وحيث لا تزال قمة أغا جدف ترتفع
١٧٠ قدمًا إلى الآن في أفق بغداد. ولكن إن كانت عقود
الجامع وهى من الطوب الأحمر المغطى بالملاط والجص،
وكذلك زخارفه في الأزوقة وحول الشبايك باقية كما
كانت فإن المئذنة التى نراها اليوم ليست هى التى كانت
قائمة في البداية، فمن المستيقن أو يكاد أنها بنيت من
جديد على يد السلطان لاجين في عهد الماليك. والمئذنة
في شكلها التى اتخذته في عصر أصبحت فيه المآذن تزهو
برشاقة تغلو أحيانًا فتبلغ حد التخث، تمثل محاولة متعثرة
للعودة بالمئذنة إلى أصلها الذى عرف كيف يقتبس في
غير اختلاط أو اضطراب هذه الخطوط المناسبة التى
ميزت المخروط الهائل في مسجد سامرا. ولم تكن المئذنة
منذ إنشائها زمن ابن طولون تبدو عجيبة شاذة، إذ كانت
المآذن - هذا الشكل المعماري المستقل - تستفتح أول
عهود تطورها على مراحل امتدت قرونًا عديدة. وكانت
أوائل المآذن أبراجًا مربعة حول الكنيسة الكبرى في
دمشق التى أصبحت فيما بعد مسجدًا. وكلمة مئذنة في
الأصل تعنى «مكان يسترعى فيه الانتباه» وكان يمكن أن

تطلق على فنار كمنارة الإسكندرية.

والمدينة الإسلامية الثالثة - تلك التي اتخذت لأول مرة اسم القاهرة وخلعته على العاصمة كلها تقع إلى الشمال من جامع ابن طولون وتبعد عنه مسافة ميل، وكان إنشاؤها بعد قرن كامل من الفراغ من بنائه. لن يسعفك قطار أو ترام لزيارتها، ومن الأصوب أن تعدل عن ركوب التاكسي وتعتمد على قدميك، هذا بفرض أنك زرت جامع عمرو مع الفجر وجامع ابن طولون وقت الفطور تقريباً.

لهذه المدينة الثالثة بوابة جنوبية - متينة عفية - من طراز بيزنطى. جناحها المحصنان ترتفع فوقها - كأنما تتهلل لنا - مآذن رشيقة أقيمت في عهد لاحق. كانت تتهلل في الماضى للمجرمين، هى حقا جسر التهديدات وبعد أن كانت تتدلى منها حبال المشانق أصبحت مأوى خفياً لسيدى المتولى، إنه قديس يطير فى الهواء من مكة إلى القاهرة بالسهولة ذاتها التى يطير بها بطل من ألف ليلة وليلة، إليه تكتب العرائض والشكاوى ويزج

بأوراقها ما بين المسامير وخشب الباب، أما استجلاب شففته فيكون بلف مزق من قماش حول المسامير.

هذا هو باب زويلة ولكنه عند المتعلقين بالولى يسمى «باب المتولى». وهناك طريقان سهلان يؤديان إليه كلاهما ممتع لك. فإذا كنت تمشى مرخى القياد، غير متريث لتأمل أثرًا معماريًا تقصده لذاته، إنما تتشرب بنظرة شاملة هذا السحر الذى تنفته عمائر مسلم لها كمالها، أو تعرضت للبللى، فإن سيرك فى أى الطريقين سيمدك بحيوية ونشوة لطيفة يتعاليان مع علو النهار ويناقضان ما بقى فى نفسك من جو القبور التى تجلت لك تحت أضواء الفجر عند جامع عمرو. أو من صرامة الجد والاحتشام التى استمد منها جامع ابن طولون مفاهيمه الأساسية. وتكفيك نظرة إلى أى خريطة لآثار العصور الوسطى فى القاهرة لتعرف كيف تتبع هذين الطريقين فهما يتحاذيان أو يكاد، ويتجهان إلى الشمال فيكون النيل على يسارك والقلعة وتلاها الجرداء عن يمينك، وبدايتها واحدة، فأنت تغادر جامع ابن طولون المستعلى

فوق راييته، فإذا خرجت من بابه انعطفت إلى اليمين حتى تبلغ شارع الصليبية الممتد شرقاً وغرباً، هابطاً من الميدان الكبير تحت القلعة إلى أن يبلغ ميدان السيدة زينب ثم يواصل امتداده المستحدث حتى النيل.

وشارع الصليبية شارع جدير بأن تعود إليه بالليل. ترى فيه «سبيلاً» من طراز تركي، وحماماً عتيقاً أسدل على بابه - كستارة - بشكير حمام يستعمل كإزار، وجامعاً له قبتان حيث يرقد اثنان متصدقان من رجال الممالك، والأفضل أن تكون هذه الجولة الليلية آخر شيء تفعله قبل أن تأوى إلى فراشك، وأن تكون بسيارة أجرة تسير بك على مهل، ولكننا الآن بالنهار، فأنت إذا تابعت شارع الصليبية في صعوده إلى القلعة بلغت مفترق طرق، ورأيت مشرباً للشاي - شتان بينه وبين أمثاله في أوروبا رغم وحدة الاسم. قد تخير مكانه قبالة «سبيل» انطلق فيه فن العمارة التركي على هواه، حتى لتظن لحظة أنك أمام منظر في أواسط آسيا لا في إفريقية، وللسبيل قبة جانبية يعلوها هلال، وخمسة اضلاع بارزة

النقوش وفق الذوق التركي، وشبابيك حواجزها
مصنفة بدقة وتداخل بارع. بجانب السبيل دك
البصل، يتعهده شيخ يعتم بطاقة بيضاء. إلى جو
مشرب الشاي رجل لفه الذبول يحتسى قدحاً من
بالبن.

سأعيد لك وصف جولتي محدداً زمن كل رحلة
للقراء جاعلاً قيامي بها في يوم معتاد من أيام شهر
والسبيل هو من معالم جولتنا فمن عنده يبدأ أول
مؤد إلى باب زويلة، يسمى ابتداءه بشارع السيوف
يمتد مستقيماً وإن تغير اسمه أربع مرات، ولا يـ
إلا شارعاً واحداً كبيراً، وهو الشارع الذي كان
من قبل شارع محمد علي وأصبح اليوم يسمى بـ
القلعة، فإذا بلغته فجاوزه محاذراً حركة المرور
فيه، وتابع سيرك في نفس الاتجاه فإنه الطريق
اصطدامك الوحيد بالترام والسيارات، ما هو إلا
واحد متصل. إنني أمر بذبائح الجاموس وعلى
أختام بنفسجية تتدلى أمام جدران بنيت قبل أول

للبطاطس - وهو معروض أيضًا أمامي للبيع - من أمريكا للقاهرة، ثم دكاكين صغيرة يشتغل أصحابها قعودًا في نسج السجاد، ها أناذا أرى صدفة أربعة من خف الجمل مقطوعة مطروحة تنتظر من يشتريها، ثم أمر بعد قليل بريميل ممتلئ بالفلفل الأخضر اللامع فيهيج شوقى إلى أن أصنع لنفسى «سلطة» متبلة، ثم بأكوام من الطماطم، حباتها كبيرة. شتان بينها وبين طماطم أوروبا التى لا تزيد فى الحجم عن كرة البلياردو - ولكنها تشكلت باعتساف كأجساد الفلاحين فى لوحات المصور بروجل، ثم إذا بصبى يرق من دكان يبيع العقود الذهبية ملوحًا بحزمات خضراء وهو ينادى بصوت عال «نعناع. نعناع» كم هى عسيرة هذه الكلمة على نطقى، ولكن ها هو عطر جديد يختلط ببقية العطور التى تملأ خياشيمى، ثم أمر بجدار تتدلى منه سلاسل من الأحذية والشباشب والصنادل، ثم ها هى امرأة متشحة بالسواد تبيع مسحوقًا اسمه «الدقة» وهى اخلاط لا حد لها من حبوب متنوعة، شتان بينها وبين الفلفل، إنها لا تهيج شوقى إلى دخول المطبخ. ثم أمر بدكان مشيد حديثًا بالأسمنت

المسلح، فهو دميم في هذا المكان، تعالت على جوانبه
كالجدران صفوف من علب مسحوق للصابون له شهرته
أتريث من جديد حين يتسع الطريق قليلاً ويستطيل،
أدخل مقهى أمامها سقيفة، بلدية هي ولكنها مريحة، عليها
لافتة تقول «قهوة محمد ناصف وأولاده» وأشرب فتجاناً
من قهوة ناصف التركية «سادة» أى خالصة بغير سكر.
على حين يمر أمامي حمار يجر عربة محملة بالقدرور الكبيرة،
حشرت في أفواهها سدادات مكورة من الورق، هي
قدرور الفول المدمس، إنه الطعام المفضل الذى يلتزمه
المصريون لفطورهم، يخلط بالزيت ويتبل. ادفع ثمن
قهوتي ما يعادل خمسة بنسات - ثم أمضى فأمر على
«قصارى» الأطفال من قبل أن أدخل إلى القسم الأخير
من الطريق. إنه سوق مسقوف «وكلمة بازار الشائعة في
الهند غير مستخدمة في مصر». وهذا السوق أمتع بكثير
من سوق خان الخليلي ذائع الصيت، فخ السائحين من
قديم. فهذا السوق المسقوف هو المكان الوحيد الذى
يرسم لك أقرب صورة إلى الصديق باقية إلى اليوم من
حياة الناس في عهد المماليك.. أبواب ضخمة - متروكة

الآن مفتوحة دائماً - رشقت فيها كرات من حديد، وكان التجار يغلّقونها بالضبة والمفتاح إذا ثارت ثائرة الممالك، هنا تستطيع أن تشتري بضاعة أصيلة تحمل طابع الشرق وتذكرك به، كلها من أجل الدواب، فهذا السوق متخصص لصناعة اطقم الخيل والحمير، والسرج وغطاء السرج والعذار المنسدل حول رأس الحصان من خيوط صوفية، وهى أشياء تقصد أيضاً إلى الزينة وإن بقى لها نفعها وثمرتها معتدل، ثم إذا بهذا السوق الذى يتسلل إليه - كأننا من مصفاة - ضوء شاحب، ينتهى فجأة عند باب زويلة. هنا أنظر إلى ساعتى، إن مشوارى من جامع ابن طولون - مع حساب تريثى لشرب الشاي عند السبيل ثم لشرب القهوة فيما بعد عند محمد ناصف وأولاده - قد استغرق من وقتى ساعة كاملة، لا تزيد ولا تنقص.

أما الطريق الثانى فهو يتساوى مع الأول فى المتعة، وإن كان أطول وأكثر تعرجاً، فلتأخذ شارع السيوفية طريقك، ثم انعطف فى أول شارع يتجه بك يمينا إلى القلعة فتجد جامعين كبيرين - أحدهما جامع السلطان حسن الذى سنزوره فيما بعد - يحيطان بالطريق وهما

على حافة وسعاية صغيرة، فلا تعرج عليها واقطع شارع
القلعة الذى لا يخلو من دمامة، ثم ادخل شارع سوق
السلاح وهو شارع مزدحم ذو أبنية متداعية تريد أن
تنقض، حتى إذا بلغت نهايته اتجه يساراً إلى شارع التبانة
الذى يمر بجامع الماردانى^(١).. ثم يتجه غرباً فيحيط
بالدرب الأحمر، وهنا تتكرر المساجد والمدارس العتيقة
وأنغام الموسيقى الشرقية والدكاكين والمشارب مكونة
الجو الأصيل الذى عرفناه. وإذا بك فجأة تجد باب زويلة
شامخاً على يمينك غير مواجه لك.

(١) بنى جامع الماردانى فى سنة ١٣٣٩ وهو يمثل خير تمثيل لقدرة المزج فى الفن العربى
الإسلامى، فأعمدته من كل شكل وحجم.. فمنها الجرانيتية الحمراء المأخوذة من المعابد
الفرعونية، ومنها اليونانية الرومانية ومنها المسيحية القبطية. وتيجانها محلاة بزهر اللوتس أو
بالأزهار ذات الطراز الكورنثى بل إن بعضها وضع مقلوباً رأساً على عقب. ولكن الطريقة
التي وضعت بها تضيف على الجميع وحدة تدعو إلى الدهشة مع أناقة تؤثر فى النفوس. وهذه
القدرة على مزج العناصر المتباينة من طراز جديد واحد هى إحدى السمات الواضحة فى
الفن الإسلامى العربى. كما أننا نرى فى المشرقية التى تفصل بين رواق القبلة عن صحن
الجامع المحاط بالأعمدة المقنطرة مثلاً رائعاً فى أعمال الخشب فى القرن الرابع عشر
الميلادى وإن تجدد أكثره. وقد كان الماردانى ساقياً للحاكم الملوكى الكثير الذرية الناصر
محمد بن قلاوون وزوج إحدى بناته، ثم صار حاكماً على حلب حيث وافته منيته.

وهكذا تجدني دائم السعى إلى باب زويلة كأنما كانت
هذه البوابة هي محط الأنظار، وإنما كذلك، فهي المدخل
إلى القاهرة الأصيلة.

وكما أن لندن الأصيلة عبارة عن نواة مسورة في وسط
سوق أقيم حولها، فكذلك القاهرة، اتخذت اسمها
وطابعها من قطعة مربعة من الأرض لا يزيد ضلعها عن
ألف خطوة. هذه المدينة الداخلية التي بنيت أصلاً لتكون
مقرًا لشئون الحكم والدين، لا للإسكان والمعيشة، هي
مدينة القاهرة. وهذه المساحة يحدها شمالاً الجزء الشمالى
من سورها الأصلي، وشرقاً سور صلاح الدين الذى أقيم
في فترة تالية، وجنوباً الدرب الأحمر وامتداده تحت الربع،
وغرباً مجرى الخليج القديم.

واستمرت القاهرة على شكلها الأصيل مدة قرنين.
أما أصل بنائها فمعروف لنا تمامًا.. فهو اليوم الخامس من
شهر مايو سنة ٩٦٩ وهى الليلة التالية لاستيلاء جوهر
على مدينتى عمرو وابن طولون باسم مولاه المعز لدين
الله. أما جوهر هذا فرقيق مسلم من أصل أوروبى،

ومولاه هو رابع من تولى الحكم من أسرة عربية تونسية طالبت بالخلافة لانتسابها إلى السيدة فاطمة بنت النبي^(١) التي تزوجت من علي ابن عم محمد وأشد أصحابه تحمساً للدين. وانبثقت فرقة من الإسلام - وهى الشيعة - تؤمن بأن الإمامة وقف على سلالة علي من فاطمة. ويتبع مذهب الشيعة حالياً نصف سكان العراق تقريباً وكل سكان ايران بينما تخلو منه مصر فهى تتبع المذهب السنى، فى حين كان مذهب الشيعة هو الأساس فى إنشاء عاصمة البلاد التى نجتاز عتبتها الآن من باب زويلة، ودليل على ذلك أن باب النصر الموجود فى الضلع الشمالى من هذا المربع الفاطمى لا نزال نقرأ ما نقش عليه بالخط الكوفى « لا إله إلا الله، محمد رسول الله » وهو ما يدين به المسلمون جميعاً، مضافاً إليه « على وصى الله ».

أما كيف بنى جوهر مدينة القاهرة.. ففى ذلك قصة طريفة. فقد جمع الحشود من العمال بمعاولهم ورصهم على أضلاع المربع الذى حدده على الأرض بواسطة قوائم

(١) لقد توفى كل أولاد النبي المذكور قبل البلوغ.

من الخشب، وأوصل أعلى هذه القوائم بحبال مدلى منها
أجراس، ووقف المنجمون المغربيون على استعداد
يتفحصون أدواتهم وطوالهم الفلكية حتى إذا اطمأنوا
إلى دخول الوقت المبشر بالخير، حركوا الحبال لتمر
عبرها الحركة - كتليفون بدائي - فتدق الاجراس
إيذاناً بالعمل، ولكن الذى حصل هو أن غراباً وقف على
الحبل وسبق المنجمين فى هزه وإعطاء الإشارة، فانهالت
الفتوس والمعاول من آلاف العمال تحفر الأرض. ولم
يكن هناك مجال لمنع ذلك، فاكفى المنجمون بأن يحسبوا
الكوكب صاحب الطالع وقت الخبطة العشواء فوجدوه
المريخ. ذلك الكوكب الأحمر اللون واسمه «القاھر»
فأطلقوه على المدينة متحدين بذلك النذر التى يحملها معه
وبذلك سميت المدينة «القاھرة» واجتازت النذر بأمان.

ولأفراد أسرة المعز صفاتهم المميزة الفريدة، فهم من
ناحية من أصل عربى لا تركى، ومن ناحية أخرى كانوا
يهتمون بالفن كاهتمامهم بالعلم، ثم إنهم بحكم شيعتهم
قد انفصلوا عن بقية العالم الإسلامى. فظهر فى الفن
اتجاه حسى لم يظهر فى العصور العربية الأخرى، اللهم

إلا في إيران الشيعية، وبدلاً من أن نرى الزخرفة العربية الجافة، نجد منقوشاً على أوانيهم الخزفية صوراً لعازفي العود، تتدلى من فوقهم عناقيد العنب، وتظهر لهم عيون واسعة وعمائم كبيرة، كما نجد رسوماً لحيوانات أيضاً، ويشهد على ذلك مجموعة رائعة من الخزف في المتحف الإسلامي.

ويتميز الفاطميون أيضاً بالسرعة والهمة في الإنشاءات، وخير دليل على ذلك ما نراه إذا ما اتجهنا شمالاً إلى منتصف المربع، ففي السنة التالية لتأسيس المدينة وضع جوهر أساس مسجد وجامعة الازهر في ٣ ابريل في الجزء الشرقي من العاصمة الفاطمية، ولم تمر سنتان حتى كمل البناء واستقبل طالبي العلم في سنة ٩٧٢.

ولا يزال لهذا الجزء من القاهرة - الذي كان أصلاً المدينة الفاطمية - سحره وجماله بالرغم مما شوه هذا الجمال مما استحدثت بداخلها وعلى أطرافها من مبان تختلف عن إنشاءات العصر المملوكي ذات الحدايق

الداخلية - وهى مبان مكونة من شقق قد خلت من كل جمال. وطالما شكنا النقاد من أن المصريين لم يبقوا على كثير من قديمهم، ومنهم ستانلى لين بول حيث كتب منذ ٦٠ عامًا إن «المصلحة التى تعنى بتخطيط الشوارع إنما قامت بمهمتها بأفق ضيق من الفكر فى خدمة المدينة» ولكننى أقول إن كل مدينة - بله العاصمة - لا يمكن أن تظل على حال واحدة مثل مدينة محنطة، فالناشئة من الأطفال يحتاجون لمدارس يطلبون فيها العلم فكيف تنشأ لهم مبانيها بالسرعة اللازمة بدون الأسمنت وأسياخ الحديد؟ وعلى كل حال فلا يزال هناك قدر كاف من الآثار يعطى مجالاً لتصوير ما كان عليه الحال فى الماضى.

إذن فلنأخذ الآن الطريق الذى يقودنا من باب زويلة فى الجنوب إلى باب النصر فى الشمال، وخير رفيق لنا فى هذه الرحلة هو كتاب مسز ديفونشير المسمى «جولات فى القاهرة» فهى ترشدنا فيه - كأحسن دليل - فى لغة سهلة صريحة، وعن علم خال من الحذقة إلى ما احتجب من آثار الماضى فى أماكنها غير الجليلة، وهى قادرة على كشف نفائس كثيرة اضطررنا إلى اغفالها فى هذا الفصل

من الكتاب. ولتركها مع من عندهم فسحة من الوقت
تطول إلى سبعة أيام أو أكثر يقضونها في القاهرة مع
كتابها ونعود فنتقدم في طريقنا ونترك مستشفى قلاوون
والآثار البديعة الأخرى التي خلفتها لنا عصور المماليك
ونخطو في شارع بين القصرين الذى يصل باب زويلة
بباب النصر حيث نكافأ في نهاية مسيرتنا المضية في
الزحام بجامع ثالث كبير هو جامع الحاكم الواقع تحت
ظلال الأسوار العظيمة مباشرة..

وهنا يمكن توجيه بعض اللوم إلى القائمين على رعاية
التراث الإسلامى، فجامع الحاكم بأمر الله جامع عظيم
سمى أولاً بالجامع الجديد وبالجامع الأبهى ولكنه يقف
الآن في الناحية الداخلية من المدخل الشمالى للمدينة
الفاطمية وقد أخذ التعب منه كل مأخذ وغطاه التراب.
والأسوار تغطى الجامع وهى حماه، فلكى نشاهده بوضوح
علينا أن نتخذ لنا مكاناً فوق أحد برجى باب النصر.
واعتقد أنه لو سئل أحد المعجبين بالعرب عما انجزوه
لأشار أول ما يشير على الأقل إلى هذه الأطلال في

القاهرة. صحيح أن في القاهرة جوامع أكبر حجماً ولكنه يتميز عنها أنه أقيم لحاكم عربي الأرومة، ومع ذلك فقد أهمل ثم أصيب بحريق كبير في مستهل هذا القرن بعد معاملة قاسية دامت قروناً، في حين كانت الترميمات تافهة، فسقط كثير من الجص المنقوش عليه بالخط الكوفي، ومع هذا فله مئذنتان مديدتان واسعتان معقدتان ظاهرتان فوق أبراج مربعة متراجعة، كما انتشر البلى في المجموعة الكبيرة من الممرات المبنية بالآجر تحتها، وكذلك احتلت مدرسة غير ذات أهمية ركناً من أركانه.

وقد قدمت اقتراحاً لأحد المواطنين العرب بضرورة العناية بهذا الجامع بدلاً من إهماله خصوصاً وأنه يقع في مدينة ينادى بها قلباً للعروبة فأجابني: «ربما كان الكره الذى لا يزال يكنه المصريون للحاكم بأمر الله هو السبب في إهمال جامعه».

والحاكم - حفيد المعز - كان أشبه بالامبراطور كاليجولا الرومانى. إنه كان مدلاً شديد الأنانية تنتابه نوبات من التعقل والجنون، ومن التسامح والتعصب، كما

كان مصدرًا لكثير من المضايقات للناس في التافه من الأمور وفي خطيرها، وظل كذلك حتى لقي مصرعه. قتله شخص مجهول في الصحراء اثناء تجواله فيها وهو راكب حماره. وكان من ضحاياه الأقباط فقتل منهم الكثير، وبائعو الملوخية التي حرمها، وهى طعام صمغى القوام محبوب عند المصريين إلى يومنا هذا، وحرم صنع أحذية النساء منعًا لهن من الخروج من بيوتهن ليلاً ونهاراً، ومنع الناس من بيع الزبيب، وأمر بحرق الكروم وقطعها، كما حرم أيضاً اللعب بالشطرنج، حتى الحيوانات لم تسلم من شره فأمر بقتل جميع كلاب القاهرة، الأمر الذى يجعلنى أنفر منه. ولكن لابد أن هذا الوحش المتأله كان يملك هالة من المهابة جعلت دروز لبنان يبجلونه إلى يومنا هذا ويجعلونه رمزاً مجسداً للفضائل التى تجمعت فيه. ومع كل فإنى اتردد كثيراً قبل أن ألعج هذا الجامع ليلاً ففيه من الخفافيش البالغ حجمها كحجم الدجاج ما تنقض وهى طائرة حتى بالنهار داخل البرج المربع الذى تسمو منه المئذنة إلى طرفها المزخرف ويصدر عنها عجيج يطغى على ضوضاء المارة فى الطريق.

وبجامع الحاكم هذا تنتهى سلسلة من الجوامع ذات طابع واحد: طابع العزة الدينية، تمامًا مثل جامعى عمرو وابن طولون، نبعت من هذا الدين الذى ينزع إلى الديمقراطية فى أحد نواحيه. فكل الناس داخل الجامع سواسية لا تفاضل بينهم، يندمج فيهم الخليفة ولو حضر فى فاخر ثيابه ووسط شديد حراسه. وكانت هذه الجوامع تشعر بالروح العسكرية وبالفحولة مثلما كان الشعب يجمع بين شعائر العبادة وحمل السلاح، وأعنى بالشعب هنا المسلمين، فلم تكن وقتذاك جنسية عربية وأخرى تركية، فالكل سواء يقيمون الصلاة صفوفًا خلف إمامهم يسجدون لله كما علمهم النبى العربى.

ولكن فى جامع الحاكم ما يوحى بأن هناك تغييرًا ما. ذلك أننا نعلم أن هذا الخليفة كان مختل العقل طاغية، ونعلم أيضًا أن حراسه الذين خصصت لهم أحياء كاملة فى المدينة صارت لهم سطوة طغت أو كادت على سطوة الشخص الذى كلفوا بحراسته، فكانت هذه الرقة فى عقود الجامع التى توحى بابتداء اضمحلال سطوة الخلفاء

حتى فقدوها كلية، وظهرت الرشاقة إلى حد الأنوثة التي
تبتعد عن الروح ذات البأس التي نراها متمثلة بوضوح
في أعمدة جامع ابن طولون أكثر من أى مكان آخر،
فهى مؤشرات تدل على أن الإسلام فى عهد الحاكم ابتداءً
فى الانكماش والدفاع (انتهت الدولة الفاطمية عندما
احتل الصليبيون القاهرة لمدة قصيرة سنة ١١٦٣). ولم
تعد الخلافة منذ عصر الحاكم تدل على ما كانت تدل عليه
فى القرون الأولى عندما امتطى المسلمون خيولهم
مشرقين ومغربين، لا حدود تفصلهم عن الدنيا بأسرها،
ثم بدأت الفرقة بينهم، وما كان الخليفة الفاطمى
إلا واحداً من الذين ادعوا حق السلطان لأنفسهم
ونافسه فى ذلك صاحباً بغداد والأندلس.

من هنا نترك جامع الحاكم ونستقل سيارة أجرة، وفى
طريق العودة. على بعد مئات قليلة من الأمتار وفى شارع
بين القصرين الذى اجتزنأه من قبل ندع السيارة تقف
بنا هنيهة - دون أن يبطل عدادها عن العد - عند
الجامع الأحمر، وهو أحسن جوامع الفاطميين حفظاً، وله

واجهته جامدة ضئيلة الزخرفة كعادة الفاطميين. ولا نتلبث عنده إلا قليلاً، ونطلب من السائق أن يتوجه بنا إلى جامع السلطان حسن قبل أن يدركنا الليل، وسيسر حتماً بمنحة قرش أو قرشين زيادة.

ويبين جامع السلطان حسن ذو الضريح أن المستوى الحضارى للدين - وليست العقيدة نفسها أو تعاليمه - قد ناله بعض التغير، كما أن المباني تغيرت في الشكل والروح، فهذا الجامع لا يقل عن جامع ابن طولون في إظهار قوة العقيدة حتى أن مدخله الشبيه بالدهليز يذكرنا بالمعابد الفرعونية التي صممت لتدخل الرهبة والخشية في نفوس المتعبدين ويشبهها أيضاً في إقامة هذا البناء المتعالى الضخم لأجل أن يضم رفات إنسان ضئيل. ومدخل هذا الدهليز عبارة عن بوابة ضخمة تعلوها طبقات من المقرنصات المحفورة، وفي نهايته نجد صحناً واسعاً مكشوفاً للسماء التي تبدو بعيدة لأن الصحن محاط بأربعة إيوانات كبار ذات عقود طويلة معتمة حتى ليخال أنه محاط بغابة من الظلال. ويوجد الضريح خلف إيوان

القبلة في قاعة متسعة ولكنه خال وهو الذي كان مستعداً لاستقبال جثمان السلطان حسن، واحد من حكام القرن الرابع عشر ليس بذى خطر كمثيله توت عنخ أمون فهو كان السابع من ثمانية أولاد خلفهم الناصر محمد المملوك الذى كانت له سطوة وقوة. ولكن ابنه حسناً لم يستطع أن يقيم قاعدة يمسك بها أزمة الحكم بحزم بالرغم مما كان يكتنه من عواطف نحو المصريين المسلمين. وكفاه ذكراً أنه أعطى اسمه لهذه التحفة المعمارية ودليلاً أيضاً على حالة الدول الإسلامية في أواخر العصور الوسطى.. وهذا الجامع ولو أنه بنى خصيصاً ليضم مقبرة فخمة لمنشئته فهو يضم أيضاً أربعة مدارس، فعلى كل جانب من جوانب الصحن يوجد باب يؤدي إلى مدرسة يدرس فيها أحد المذاهب الأربعة المعترف بها في المذهب السني، والفروق بين هذه المذاهب صغيرة جداً ولا يمكن أن تقارن بما بين مذهبي السنة والشيعة من اختلاف. ومع ذلك وبالرغم من هذه الرعاية كما نراها في هذه المدارس وفي الميضاة الوسطى المخصصة للطهارة والوضوء فإننا نرى فيه رمزاً للانطواء فالسلطان حسن بالرغم من ميله إلى المصريين

كان مملوكًا أى غريبًا من طائفة لم تندمج من الشعب سواء كانوا فى عز قوتهم مشيدىن أو كانوا فى قلة حيلتهم متقلبين. من هنا نرى أن جامع السلطان حسن قد قطع بنا شوطًا طويلًا بعيدًا من روح عمرو الذى أقام مدينة من الخيام وبنى مسجدًا متواضعًا لجنود ولى عليهم وهم معه سواسية. عمرو هذا الذى قدم من بلاد العرب المحمدية حيث كان النبى يرفع ملابسه فى بيت متواضع وحيث شاركت النساء فى غزوات الحروب وندوات الأدب، بينما نشأ السلطان حسن على تقاليد دعت إلى حجزهن فى «الحريم». ففى جامعه تجلت الملوكة بأوضح معانيها كما تجلت فى وندسور فى انجلترا.

أما آخر مرحلة فى رحلة اليوم فهى زيارة القرافة شرقى المدينة، فهنا شغل الممالك المتأخرون بقبورهم وأقاموها خالية من المدارس والميضآت، إنما هيئت للموت فقط.

وكثير منها جميل وكثير أيضًا متداع، وتعددت القباب حتى صارت رمزًا لمدينة الموت. وقد ابتدئ فى زرع

الأشجار في الأراضى المحيطة ولكن التراب يملأ ما بين القبور. هيا نختار واحدًا منها. إذن فلنزر ضريح قايتباى فعسى أن يكون مفتوحًا. وقايتباى واحد من المماليك ذوى النشاط عاش فى العصر السابق مباشرة للفتح التركى العثمانى. ويمتاز ضريحه بوجود زجاج ملون مرتفع فوق الجدران يسمح للأضواء أن تمر إلى الداخل.. أضواء ليست من صنع مصر.

ونكتفى بهذا القدر من التراب ومن ذكر الموت، فالتراب قد زكم الأنوف، وشعر الإنسان أن الدنيا قد انقلبت ترابية كلها. فلنختم رحلة يومنا هذا فى فلوكة على النيل حتى يغسل النسيم الشمالى كل كآبة أصابتنا استعدادًا لسهرة المساء. وفى الفلوكة - عندما تقترب الشمس للمغيب - نرى مسجدًا جديدًا بالقرب من كبرى يصل بين الروضة والجيزة، أطلق عليه اسم صلاح الدين تسطع عليه أضواء تجعله يتلألأ ناطقًا بإحياء العمائر التى تمتد إلى السماء على الطراز القوطى.

الفصل الثاني عشر

القاهرة.. والأمسيات

إن ليل القاهرة يظل عالقاً في الذكر أكثر من نهارها. بل هو مثير للشعور أكثر بكثير من ليالي أوروبا، ويرجع بعض ذلك إلى الطقس، فحالمًا تغيب الشمس خلف الأهرامات، تهبط درجة حرارة الجو هبوطاً سريعاً ملحوظاً سواء كان ذلك شتاء - عندما تكون درجة الحرارة في النهار حوالي ١٥ درجة - أو صيفاً عندما تعلو فوق ٤٠ درجة. وتبدو النجوم أكثر عددًا وأشد لمعاناً بسبب جفاف الجو، بخلاف ما تبدو في الأجواء الرطبة. إذن فما هي المتعات التي ننتظر من القاهرة أن تقدمها لنا عندما ينتشر ألفان من خفراء الليل الكبار السن

بينادقهم العتيقة يجوبون شوارع المدينة المتطورة
ويحرسونها؟.

هناك أولاً ستة عشر مطعمًا تنتشر على طول النيل،
يتخذ بعضها مكانًا في العوامات والباقي على الحدائق في
الهواء الطلق، وتظل مفتوحة طول السنة آمنة من الأمطار
التي لا تهطل إلا دقائق معدودة كل عام، ولو أن بعض
ليالى الشتاء قد تبعث القشعريرة في الأجسام. أما
مطعمى المفضل على النهر فهو كازينو الحمام على
الشاطئ الغربى فى الجيزة. والجيزة محافظة منفصلة عن
القاهرة لها محافظها الخاص بها، وهو يحرم بيع المشروبات
الكحولية فى شهر رمضان عندما يصوم أتقياء المسلمين
عن الطعام والشراب طول ساعات النهار، فى حين يسمح
بذلك محافظ القاهرة (فى بعض الأماكن التى يرتادها
السائحون). وعلى ذلك فلك الحرية أن تطلب - طوال
العام خلاف ذلك الشهر - ما شئت من البيرة
والزبيب^(١) والنبىذ المصرى. وعصير الكروم المصرية فى

(١) الزبيب هو الانتاج المصرى للسائل عديم اللون الذى يتحول إلى لون =

الحقيقة يستحق شهرة خلاف ما هو عليه، فمزارع جناكليس في الدلتا تنتج أنواعاً متعددة من الأنبذة الحمراء والبيضاء بأسعار معتدلة، وهى بالتأكيد أجود بكثير من الأنبذة العادية المنتشرة في فرنسا. وعمر الخيام هو أحسن الأنبذة الحمراء كما أن كلوس نسطور أحسن البيضاء. والصنف الوحيد الذى تجده في المطعم ليؤكل بجانب النبيذ هو الحمام المشوى على الفحم، وقد اتخذ الكازينو اسماً له، فإذا أخذت في تناول طعامك أحاطتك - تراقبك بصبر - فرقة من القطط هى حتماً نتاج تلك التى كان يقدسها الفراعنة، ويظلك وأنت جالس حفيف أوراق شجر الكافور، بينما تنساب بجانبك - حتى تكاد تلمسها - الفلائك والمراكب ذات الأشرعة تحركها الرياح رائحة غادية تحمل حمولتها من البضائع..

وليست القاهرة مدينة يقصدها المهتمون بفنون الأكل وتذوقه، فمطاعمها - خاصة تلك الملحقة بالفنادق

= أبيض عند خلطه بالماء. وهو معروف باسم أوزو في اليونان. وراكت في تركيا. ويسمى في البلاد الأخرى بالعرقى.

الحديثة - تقدم الطعام الغربى المعتاد الذى تتفاوت درجة جودته من جيد إلى متوسط، ثم إنها تقدم لك الأطباق باردة حتى طبق الأومليت، فإذا أصررت - كما أفعل دائماً - على تقديمها ساخنة فأغلب الظن فإنها ستقدم لك شديدة الحرارة تصدك عن لمسها وتضطرك للانتظار حتى يمكنك الأكل. والحد من استيراد الكماليات يعنى اختفاء بعض الأنواع مثل الجبن الفرنساوى أو الايطالى. ولكن اللحوم المصرية جيدة خصوصاً لحم الضأن الصغير كما أن هناك أنواعاً ممتازة من الأسماك تأتى من البحرين المتوسط والأحمر ويقال إن كمية الفسفور العالية فى البحر الأحمر هى السبب فى ضخامة حجم الجنبرى السويسى.

ويمكن معرفة بعض الطرق الشرقية فى تحضير الأطعمة بتناولها فى المطاعم البلدية. وإذا كانت باريس مركزاً تجتمع فيه مدارس الطهى الغربى فإن استنبول هى الأخرى تعد مركز تجمع للطهى الشرقى لا يقتصر عليها فقط بل تمتد فروعه إلى كل الولايات التى كانت تابعة

للإمبراطورية العثمانية السابقة، أعنى اليونان وسوريا
ومصر، وإني شخصياً أضع الطعام المصري فوق اليوناني
وأقل قليلاً من اللبناني، فتجد في المطاعم البلدية الكفتة
والكباب وهما: أشهى أصناف اللحوم ويحضر كل منها من
لحم الضأن، أما الكفتة فتحضر بفرم اللحم ثم شيه فوق
شواية، أما الكباب فيشوى اللحم في قطع صغيرة
منفردة، وتجد أيضاً الملوخية وهي جذيرة بأن يتذوقها
المرء وهي نوع من الخضروات الغروية التي سبق أن
ذكرنا أن الحاكم - ذلك الخليفة المجنون - قد حرم
أكلها. وصنف آخر هو طبق المنخ والكبد المقلين وتجده في
مطعم صغير بالقرب من باب اللوق، أما الكوارع وهي
تحضر من حوافر الماشية فلم تمر من بين شفتي ولذلك
لا أستطيع أن أحكم عليها..

وتوجد مطاعم كثيرة نظيفة للوجبات الاقتصادية التي
يقبل عليها القاهريون، وهي مطاعم الفول المدمس
والطعمية. وتصنع الطعمية على هيئة كرات صغيرة من
خليط مكون من فتات الخبز والفول المجروش والبصل

وبعض الأعشاب العطرية وتضاف إليه الخميرة ليصير
هشاً ناعماً ثم ترش الكرات بحبات السمسم وتقلي في
الزيت. وفي هذه المطاعم يمكن للشخص أن يتناول كفايته
من الطعام بما في ذلك رغيف بلدى مستدير وسلطة
بما تعادل قيمته حوالى عشرة قروش.

ها نحن الآن قد فرغنا من تناول العشاء، والمعتاد في
القاهرة أن تعوض كمية الطعام ما ينقصه من الجودة.
فماذا بعد ذلك؟

يجيب القاهريون على هذا السؤال بطرق مختلفة
ولكن الأمر المعتاد هو أن يقضى النساء أوقاتهن في
البيوت في حياكة بعض الملابس الخاصة أو في مشاهدة
التلفزيون أو الاكتفاء بالتحدث مع غيرهن من النساء.
أما الرجال فيتوجه كل منهم إلى مقهى من ضمن ستة
آلاف مقهى منتشرة في المدينة ليشرب الشاي ويقطع
الوقت مع غيره في لعب الطاولة أو في مشاهدة التلفزيون
أو مجرد الحديث، وهذه متعات تلزمهم الجلوس ولا تنطلق
بهم. غير أن الشبان صاروا ينتمون إلى الاندية الرياضية

ليمارسوا بعض الألعاب، وإلا فإنهم يزحمون الأرصفة
عند مداخل دور السينما.

وأمسية الخميس هي أمسية السينما بلا منازع لأن
الجمعة هو يوم الراحية... وفي القاهرة اثنتان وتسعون داراً
للسينما يختار المرء منها ما يحلو له، وجمهور السينما في
العواصم العربية لا يقل حماساً لها أبداً عن أمثاله في
البلاد الأخرى. والقاهرة هي المدينة العربية الوحيدة
التي توجد فيها صناعة سينمائية ضخمة فقد انتجت
استوديوهاتها التي تقع على طريق الأهرام أفلاماً منذ
العشرينات. وكان الإنتاج في بعض السنين يزيد على
مثله في بريطانيا، الأمر الذي جعل بعض المخرجين
الرواد مثل يوسف شاهين يبدي أسفه لأن الكثرة طغت
على الجودة وسلبته المقدرة على الوقوف بجانبها. ويأخذ
الفن السينمائي المصري أسلوباً واحداً لا يغيره. ولى
تجربة شخصية مع هذه الصناعة عندما كانت تحت
السيطرة الرأسمالية، فقد دغتنى صديقة لتناول الغداء مع
أحد المنتجين الكبار وهو من أصل شامي بدأ حياته في

تصميم زينبات لشعور السيدات (وربما كانت جوستين إحدى عميلاته - البطلة الروائية في رباعية لورنس داريل) ثم خصص نفسه لتصميم الأفلام للملايين العرب. وطلب منى قائلًا «أريد قصة يامستر ستيوارت تليق بنجمتي الكبيرتين فاتن حمامة وشادية، وستكلفاني معًا نصف ميزانية الفيلم فلذلك أطلب أن تحتوى القصة على شيء جديد مبتكر». وقد سبق أن شاهدت هاتين السيدتين، إحداهما - فاتن - متزوجة من عمر الشريف الذى لعب دور الشيخ فى فيلم لورنس، وهى فيها أعتقد أشد الممثلات إخلاصًا لعملها، والأخرى - شادية - فتاة ظريفة تبدو مريحة ولها صوت رفيع.

سألت «أتطلب شيئًا واقعيًا؟».

فرفع يديه بأظافرها الملمعة فزعًا وقال «أعوذ بك يا مستر ستيوارت، أرجوك إن جمهورنا من الطبقة الفقيرة وعندهم ما يكفيهم من الواقعية، إنما أريد لهم أن ينطلق بهم خيالهم بعيدًا عنها».

وهذا لا يطابق الواقع كما شاهدت فى الأفلام

المصرية، ولكنني كنت في ذلك الوقت محتاجًا إلى المال -
كما تعلم بذلك صديقتي - وكان ما عرضه علي - مقابل
عشرين صفحة - ما أقنعني. إلا أن صديقًا حذرني
ناصحًا: «خذ حذرك فإنهم سيدفعون لك أجرتك عن
كل مرحلة من العمل إلا الأخيرة منها» وقد تبين صدق
قوله فكنت لا أنال ما أستحقه إلا على أقساط ضئيلة
وبعد إلحاح وكلما اتصلت بالمنتج تليفونيًا فيما أن يكون
«نائبًا» أو «متقريبًا في سوريا». ولما انتهت من القصة
وبقي لي ثلث ما أستحقه قيل لي في نبرة استياء «كان
يمكن لابني أن يسطر في صفحتين ما ملأت به عشرين
صفحة، أما عن لغتك الإنجليزية فإن ابنتي وهي طالبة في
الجامعة الأمريكية تقول إن المستر ستوارت يكتب لغة
انجليزية جيدة ولكنها ليست بالإنجليزية الخالصة».

وماذا كان في مقدوري أن أفعل. لقد كنت غير راض
عن هذا السيناريو غير الواقعي. ألم أظهر شادية في أحد
المناظر وهي محرومة من الأولاد تبكي وفي يدها كتاب
مفتوح من كتب الأطفال جالسة على أريكة من طراز

لويس السادس عشر، فإذا انتهى هذا المشهد المرسوم،
تجف الدموع وتتحول إلى بسمات ونرى شباناً في
سياراتهم وطائراتهم ثم تنتهى بهم حبكة القصة بغسل
الدموع بالغناء والرقص. وقد مثلت كل من فاتن وشادية
دورها جيداً.

وقد مثلت فاتن أيضاً في فيلم «دعاء الكروان» وهى
تراجيديا تدور وقائعها فى الصعيد ألفها الأديب الكبير
الدكتور طه حسين. وأخت فاتن فى القصة يغويها محام
فتنهض هى للانتقام منه، وكان النصف الأول من الفيلم
واقعيًا إلى درجة تظهر فيه الأقدام حافية تحبوطها
الخلائيل. الأمر الذى لم نسمع به من قبل. وهبط
النصف الثانى، وفيه نرى المحامى يصطحب فاتن - التى
نراها فى زى سيدات الزمالك - إلى نزهة على شاطئ
البركة، وهو ما لا يخطر مطلقاً على بال أحد فى الصعيد
المحافظ.

ولعبت شادية بعد ذلك دور فتاة من بنات الليل فى
حسن فيلم - فى رأيى - أنتج إلى الآن، هو فيلم

« اللص والكلاب » كتب قصته نجيب محفوظ حول شرير تطارده الصحافة، وهو سفاح أصيب بلوثة وانتهى به الأمر بأن حوصر وقتل بالرصاص تماماً مثل ما حدث للمجرم الأمريكي ويللنجر. وقد رمز نجيب محفوظ بهذا القاتل عن الشخص الحديث الحائر الذي خانته مرشده وتغلى عن مبادئه. ومن العجب أن هذا الفيلم قد خلا من مواقف المرح المصطنع والفقرات الخطابية الجوفاء، فجاء السيناريو سريع الحركة قاسياً مثيراً قليل الحوار.. ولم يكن سبب انحراف البطل تافهاً فقد دفعه إليه - أثناء عمله كخادم في بيت الطلبة - طالب يسارى لا يقيم وزناً للقيم الروحية. وكان هذا الطالب يعتقد أن المبادئ الأخلاقية قد بليت وعفى عليها، وأن اللص في البلاد الرأسمالية حينما يسرق إنما هو شخص تقدمى، وهى أفكار قد عفى عليها في الغرب ولكنها لا تزال تأخذ بقلوب بعض الأشخاص. إلا إن هذا الطالب يغدو صحفياً ناجحاً ويتزعم حركة مطاردة تلميذه الذى طبق دروسه بحسن نية، ثم ينشرح صدره عندما يبلغه نبأ مقتل المجرم. صرعه رجال الشرطة برصاص المدافع الرشاشة

بجوار جدران جامع الجيوشى. ولم يبكه أحد سوى بائعة الهوى.

وهناك علامات توحى بأن الأسلوب المعتاد الذى يسيطر على قصة الفيلم المصرى لم يعد له مجال كبير، وظهرت مناقشات فى الصحف كان اتجاهها ضد الاعتماد على أسماء النجوم فقط لما تبين - كما أخبرنى صديقى المخرج - أن ذلك كان يستغرق الجزء الأكبر من ميزانية الفيلم الضئيلة (حوالى ٢٥,٠٠٠ جنيهًا) فلا يبقى إلا القليل لكاتب السيناريو وبقية الفنانين المتخصصين، كما أن أكثر النجوم ليست لهم قدرة فنية كبيرة، لأن خبرتهم فى التمثيل نبعت نتيجة لاجتهادهم الشخصى، ولم تنبع نتيجة للتدريبات المنتظمة فى دور التمثيل التعليمية، وقد يقفز أجر الوجه الجديد المبتدئ.. وإذا لقي حظوة لدى الجماهير من ١٥٠ جنيهًا فى الفيلم الأول إلى ألفين من الجنيئات فى الفيلم الثانى، ثم يملاؤه الإطراء بالغرور طول حياته، ما لم يكن - مثل عمر الشريف - صاحب موهبة حقيقية.

ويمكن القول بأنه لن يتم إنقاذ الفن السينمائي
المصرى والنهوض به إلى المستوى الذى يجعله جديرًا
بالتقدير فى الدوائر السينمائية العالمية إلا عن طريق
النهضة المسرحية التى تعد الظاهرة الثقافية الكبرى فى
مصر والتى استمرت قوية منذ ظهورها فى أوائل
الستينيات.

وقد ظهر التمثيل المسرحى فى مصر فى نهاية القرن
التاسع عشر واستمر بشكل أو بآخر حتى سنة ١٩٥٢
فلا نجد فيها سوى مسرحين جادين فقط، أما الآن
فهناك ما لا يقل عن ثمانى عشرة فرقة مسرحية تعمل
على أربعة عشر دارًا مشيدة للتمثيل، وهذه الفرق قابلة
للزيادة وتختلف المسرحيات التى تقدم على مدى واسع
ابتداء من الكوميديات المحلية التى تتخذ فيها عناوين
مثل «بابا ما يعرفش» إلى ترجمات من بيكت ويونسكو.
ومن هذه المسارح مسرح الجيب الذى أنشئ ليعرض
المسرحيات العالمية الطليعية، كما أنشئ مسرح توفيق
الحكيم ليعرض مسرحيات الكاتب المسرحى الأول فى

مصر، وكذلك أنشئ معهد عال للفنون المسرحية يتخرج منه ممثلون شبان يجيد كل منهم عملاً - بضمان من الحكومة - حال تخرجه. وقد أجريت حديثاً مع الوزير المسئول عن الثقافة في مكتبه في أحد الأدوار العليا من مبنى التليفزيون العربى على النيل مندوباً عن هيئة الإذاعة البريطانية شرح فيه اتجاه الحكومة نحو الثقافة فقال:

«منذ قيام الثورة صارت مقاليد الحكم في أيدٍ مصرية صميمة، وذلك لأول مرة منذ العصور الوسطى وهدف الحكومة هو تعميم حد أدنى من الثقافة بين جماهير شعبنا جميعاً، ولا تبرر إقامة شخص في أسوان أو حتى في واحة سيوة أن يكون بعيداً عما يجرى حولنا في العالم الحديث، بل يجب أن يكون على بينة من ذلك، إما بقراءة الصحف أو حتى بمشاهدة التليفزيون، ونحن سنوجه مجهودنا الأكبر - بدون أن نستحي من ذكر ذلك - إلى الجمهور الكبير لأننا نعتقد أنه عندما يتمكن جميع أفراد الشعب من معرفة القراءة والكتابة وأن يعيهم جميعاً حد أدنى من الثقافة فقد كونا بذلك قاعدة عريضة قوية يمكن أن نبني

فوقها إلى أن ينتهى بنا البناء إلى قمة هرمية من الكفاءة
العالية»

وهذه المحاولة الواعية لجعل القاهرة مركزاً للإشعاع
الثقافى لجميع أنحاء البلاد يظهر واضحاً فى الموسيقى،
وبشكل أوضح فى الغناء. وقد كانت الكلمة طوع فصاحة
العرب دائماً، وفى نفس الوقت تؤثر بسهولة على
عواطفهم. وكان الشعر هو الفن الصحراوى القد، وفى
مصر المثقفة تغلغلت أغاني أحمد شوقى وأحمد رامى
الشعرية فى الجماهير العريضة باستماعها إلى صوت
سيدة فريدة هى السيدة أم كلثوم، ولها معجبون فى العالم
العربى كله. وقد كان من عادتها أن تقيم حفلاتها فى
الخميس الأول من كل شهر فتمتلئ المقاهى من بغداد
إلى مراكش انتظاراً لأغنياتها الجديدة. ويوجد فى القاهرة
بالقرب من ميدان التوفيقية مقهى أم كلثوم، وهو من
ثلاثة طوابق، الأرضى منها مفتوح على الشارع وهو
مقهى عادى بأنواره وضوضائه، والطابق الثانى خافت
النور وبه مسجل للصوت ينساب منه صوت أم كلثوم

قويًا يستمع إليه شباب من الطليعة وموظفى الحكومة والجنود ساعات متواصلة وهم جالسون يرتشفون القهوة فى هدوء، أما الطابق العلوى فالنور فيه أشد خفوتًا يجلس فيه المدمنون على الاستماع فى خشوع تام حيث تعتبر مجرد الهمسة بخسًا فى محراب الفن.

أما بخصوص الفنون الشعبية فقد اتجه تشجيع الدولة لها نحو التهذيب دون البتر أو الحجر أى - على حسب التعبير الفرويدى - إن الدولة اخذت وظيفة الأنا (السوبر ايجو) أى النفس الحكيمة التى تضبط وتنظم «الإد» أو الغرائز اللاشعورية التى تهيمن على الجماهير. وقد طبق هذا التهذيب على الرقص.

ولكى ندرك هذا الموقف يجدر بنا أن نرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر عندما ألف لين كتابه عن عادات المصريين. ففى ذلك الوقت ذكر لين أن الراقصين كانوا صنفين: الأول منها يتكون من الغوازى وهن نساء قبيلة معينة كن يرتدين عند الرقص زى السيدات التركيات الأنيقات فى ذلك العهد، وهو عبارة عن سراويل واسعة

وصديرية وحزام يغطيها كلها قفطان ذو أكمام مدلاة مشقوقة، ويضعن فوق رءوسهن قلنسوة منبسطة. وقد تتبع لين أصولهن حتى العصر الروماني. وكن مطلوبات للرقص أمام الضيوف الرجال في حفلات الزفاف. وكتب لين الوقبور «أما عن رقصهن فيكاد يكون خالياً من الأناقة، وأهم ما يميزه هو هز الأرداف هزاً سريعاً من جانب إلى آخر».

وحيث أن التقاليد المحافظة النابعة من الدين في ذلك العهد كانت لا تسمح باختلاط الجنسين، فما بالك برقص النساء أمام الرجال حتى ولو كن من طائفة احترفت هذه المهنة من قديم الزمان. فإن ذلك استدعى ظهور الصنف الثاني من محترفي الرقص للتغلب على هذا الاعتراض واعتبره بعض الغيورين أفضل قليلاً من الاختلاط. وهذا الصنف يتكون من رجال من أهل البلاد يتزويون بزي النساء وينتحلون شخصيتهن، وعلى ذلك يؤدون نفس الحركات التي وصفناها عند ذكر رقص الغوازي، عل نغمات الصاجات مثلهن تماماً. وحتى لا يشبهه على

البعض فيعتقد أنهم من النساء حقيقة فقد تخير هؤلاء الراقصون لزيهم لباساً يتفق مع مهنتهم غير الطبيعية، يخلط بين ملابس الرجال وملابس النساء، ويتكون عادة من صديريّة ضيقة وحزام مع نوع من «الجونلات».. إلا أن منظرهم العام يوحي بأنه نسائي أكثر مما هو رجالي لأنهم يطلقون شعورهم ويجدلونها - كما تفعل النساء - على شكل صفائر نسائية، وينتفون شعر الوجه عندما يبدأ في الظهور، وكانوا يقلدون النساء أيضاً في تجميل العيون وصبغ الأكف بالحنّة، ثم إنهم بعد الانتهاء من أداء رقصاتهم، يتحجبون أثناء سيرهم في الطرقات لا استحياء من مهنتهم بل إحكاماً في تقليد النساء، وكثيراً ما كانوا يفضلون على الغوازي للرقص أمام الدور أو في أفنيتهما الواسعة في مناسبات الزواج أو إنجاب الأولاد أو الختان، وكثيراً أيضاً ما كانوا يزاوون مهنتهم في المهرجانات الشعبية العامة.

أما رقص البطن المنتشر في النوادي الليلية الحديثة (وفي القاهرة منها خمس وعشرون نادياً ليلياً) فهو آخر

مرحلة من تطور رقص الغوازي، وبدلة الرقص ليست من تقاليد البلاد في شيء، إنما هي اعتقادات خاطئة في أذهان بعض مصممي الأزياء الأوروبيين ابتدأت عندهم عند عرض منظر الرقص في أوبرا «عايدة». وهذه البدلة تبدي جزءاً عابرياً من الجسم بين غطاء الصدر النحاسي اللون وبين الجزء السفلي الشفاف. وفي عهد فاروق كان كل معجب براقصة يرمى تحت أقدامها بعملات ذهبية رقيقة كصفائح الصفيح فتأخذ كل راقصة ما يلقي عليها من عملات وتثبتها في بدلة رقصها كالترتر.

وكانت المنطقة العارية من البطن أول ضحايا «التهذيب» الحديث، فصدر قرار بعد الثورة بوجوب تغطية هذا الجزء من البطن بالشاش أو بالتل. وحاول - عبثاً - بعض ذوى الأفكار النظرية خلق نوع من الفن «الخالص» من هذه الرقصة المثيرة للغرائز والتي تأخذ في أسوأ حالاتها شكل هزات كأنها الرعاشات على توقيعات سريعة من ضربات متلاحقة من الطبول.

وكثيرا ما نجد عازفًا كفيًا في الفرقة الموسيقية ولا يقتصر أداء رقص البطن على النوادي الليلية مثل الموجود في فندق هيلتون، بل يمكن مشاهدته في أى حفل زفاف في المدينة حيث تهتز البطون العارية مع نفس الحركات والإيماءات المتوارثة كما كانت من قبل على الدوام. ولا يزال في الإمكان استخدام الراقصين الرجال المتزيين بزى النساء، وقد تركوا شواربهم تكبر وشعورهم تنمو إلى جدائل طويلة وينتفون حواجبهم وصاروا يعرفون الآن باسم «أبو الغيط» بدل اللقب الذى كان يطلق عليهم سابقًا لأنه صار الآن نوعا من الشتائم والإهانات ذلك أنه أصبح يطلق على المختشين من أصحاب الشذوذ الجنسى.

وإذا كانت الغوازى والمتشبهون بالنساء مظهرين من مظاهر «الإد» أو الغريزة فإن فرقة رضا للفنون الشعبية تحظى بالقبول لدى «السور ايجو» أو «الأنا» وكان السبب في تكوينها أن فرقة أوبرا بكين زارت القاهرة بعد اعتراف مصر بالصين الشعبية مباشرة، وعند وجودها في

القاهرة قدم السفير الصينى دعوة « لفرقة مصرية راقصة » أن تزور بلاده. وسببت هذه الدعوة حرجاً حيث لا يمكن التفكير مطلقاً أن ترد الزيارة فرقة من الغوازي أو المتشبهين بالنساء، ومن ناحية أخرى لا توجد فرقة أخرى صالحة ولكن لم يلبث هذا الحرج طويلاً حيث بادر كل من محمود رضا وزوجة أخيه فريدة فهمى وكونا فرقة راقصة بسرعة تستحق الإعجاب، ونالت هذه الفرقة شهرة عند الجماهير نتيجة لحبهم إياها. وقد تكونت هذه الفرقة في مبدأ أمرها من طلبة جامعيين (وقد سبق لمحمود رضا أن قام بالرقص لمدة عام في باريس مع فرقة الفريديو الاريبا الأرجنتينية الراقصة). وكما جاء في جريدة «الآراب اوبزرفر» عن الفرقة فإنها « قدمت من سنين عديدة بالية كاملاً باسم «عروسة النيل» تحكى قصة عاشقين قرويين - على غرار روميو وجولييت - ولكنها تنتهى نهاية سعيدة. وصار هذا البالية محور عروض الفرقة في تجوالها في ألمانيا ويوغوسلافيا والاتحاد السوفيتى حيث قدمت سبعة وعشرين عرضاً، واشتركت الفرقة في يوغوسلافيا في مهرجان للرقص

الشعبى وحازت على المجائزة الأولى»

أما الفن الشعبى الآخر وهو القراجوز فقد تغير هو أيضاً تغيراً شاملاً مماثلاً لما حصل للرقص وهو يشبه عروض بانس وجودى فى بريطانيا، وكلمة قراجوز وهى كلمة تركية تعنى «العيون السود» - كانت اسماً لأحد مهندسى صلاح الدين، ولكن لا نعرف كيف أطلقت على هذا الفن الذى تنوّه بنا أصوله الأولى عند السهول الصحراوية على مشارف الصين. وكان القراجوز يعرض على طريقة خيال الظل فكانت عروضه لا تقام إلا ليلاً كما ذكر لين فى كتابه المذكور. وقد عثر على مجموعة جميلة من عرائس القراجوز فى حفريات فى الفيوم (على بعد ساعة بالسيارة من القاهرة) وهى موجودة فى برلين، وقد صنعت فى القرن السادس عشر لتسلية أحد البكوات المماليك. وتمتاز بيريه فى اليونان الآن بعروض القراجوز فى شكل خيال الظل وعلينا أن نتوجه لهذه المدينة إذا رغبتنا فى مشاهدة هذا العرض فنشاهد أشكالا شفافة ملونة مصنوعة من الرق وهى تلعب كوفيديات غالباً

ما تكون مخلة بالآداب، أما في القاهرة فلا يزال القراجوز يطلق على عرض للعرائس مثل «بانش وجودى» تصاحبه جلبة عالية، ويطوف في شوارع المدينة بصحبة بعض البهلوانات وعازفى الصندوق الموسيقى - البياتولا - الذى تزينه صور سيدات على الطريقة النابولية. وأعرف شخصياً اثنين ممن يحترفون هذا الفن من العرائس القفازية الذين سرعان ما يجذبان جمهورهما بأصواتها ذات النبرات العالية نحو كشكيتها ذوى الألوان المبهرجة، ويندمج الأطفال في بعض الأحيان مع هذه العرائس إلى درجة أن يقفز من بينهم طفل يحاول أن يقرص واحدة منها تحت السرة تكون قد أثارت، الأمر الذى يبعث السرور عند مرتضى القهوة الجالسين على شرفات المقاهى.

وكما أمكن تهذيب رقص الغوازى والمتشبهين بالنساء إلى فن من الرقص الشعبى، كذلك أمكن تطوير القراجوز إلى مسرح للعرائس تحت إشراف وزارة الثقافة. وكانت فرصته التى ساعدته على الظهور إنشاء

مسرح خاص بأنواره التي يمكن التحكم فيها. وفي يناير سنة ١٩٦٣ ألف صلاح جاهين - أحسن رسامي الكاريكاتير وأضخمهم أيضًا - رواية «حمار شهاب الدين» لهذا المسرح، وهي قصة خرافية وقعت حوادثها في بغداد ولكن على أحدث التقاليد. وكانت الإضاءة بديعة وتحريك العرائس بارعًا. ولكن بالرغم من براعة صلاح شاهين كزجال وليس كرسام كاريكاتوري فقط فإن من كتبت هذه الرواية تحت رعايتهم اشترطوا عليه ألا يأتي بأي فحش في القول أو عنف أو نكات ذات ثورية. فكان هذا الوقار سببًا في فقدان كثير من المميزات الخاصة بهذا النوع من الفن والتي نجدها في العروض الشارعية. وهذه الأخيرة التي لا تنتفع بأية مساعدة مالية من الدولة تذكر - أوهي تعرف بالغريزة - بديهية دورانتى أستاذ فن العرائس العظيم في القرن التاسع عشر الذي يقول فيها «ما تؤديه العرائس هو أهم ألف مرة مما تنطق به».

الفصل الثالث عشر

العلم والتعليم

عُرِفَت القاهرة طوال ألف سنة معدودة بأنها أهم مركز لنشر العلم في أفريقية، ولا شك أن هذه الصدارة لم تكن على الدوام ميزة خارقة، ذلك لأنها صدارة على عدد قليل جدًا من معاهد العلم في تلك القارة. ولكن هذه الميزة زادت جدارة في المائة السنة الأخيرة.

ويأتى تفوق القاهرة في مضمار نشر العلم نتيجة لإنشاء الأزهر في السنة التالية لدخول الفاطميين إلى مصر، وكان انشاء هذا المسجد الجامعة دفعة حيوية لمصر والإسلام وأفريقية، فحق علينا هنا أن نشيد بصاحب الفضل في قيام الأزهر ونذكر اسمه كاملاً فهو جوهر

الكاتب الصقلي^(١)، وينطق المصريون الجيم في اسمه
جامدة ولا يعطشونها كما تعطش في كثير من البلاد
العربية.

وقد اتسع الأزهر (جامع الأزهر) كثيراً على مدى
الأعوام والقرون، أما الجامع فيحتوى على تعويذة
عجيبة، وهى عبارة عن رسم لطيور موجودة فى أعلى
أعمدة ثلاثة من أعمدته، وذلك من أجل منع الطيور
الحية من اتخاذ أعشاش لها داخل مبانيه. وكما بنيت
كليبات أكسفورد أصلاً حول الكنائس والمحاريب (ولم
تخطر فكرة إنشاء بيوت مخصصة لمعيشة الطلبة إلا فيما
بعد) فكذلك كان المسجد هو النواة التى امتد الأزهر
حولها فخرج عن نطاق التعويذة وأصبح لا شىء يحول
دون زقزقة العصافير أن تنازع انصراف الأساتذة إلى
إلقاء محاضراتهم. ولكن على حين أن أكسفورد - التى
قامت بعد الأزهر - أخذت تتقدم وتتطور سريعاً بعد

(١) معروف فى كتب التاريخ العربية بجوهر القائد الصقلي لا بجوهر الكاتب.
(المترجم) فهو صاحب السيف الذى فتح مصر للفاطمين.

القرن السادس عشر فقد بدا أن الأزهر ظل راكداً، كبلته التقاليد الموروثة وإن اعترف لها بأنها تشتمل على محاسن كثيرة، ولا يزال العلم في الأزهر يربوع زائره إلى اليوم حين يرى أستاذاً مبجلاً مهيباً يتحلق حوله تلاميذه وهم قعود على الأبسطة في الجامع الكبير، ولكن مناهج الدراسة كانت محدودة وطابعها سلفياً فهي مقتصرة على تدريس تجويد القرآن وعلم الحديث وقواعد اللغة العربية والفقه الإسلامى.

أما الطلبة أنفسهم فكانوا يقسمون حسب موطنهم، ولكل قسم مكانه الخاص به، للإقامة والدرس داخل الأزهر، وتسمى أمكنة الإقامة بالحارات وأمكنة الدرس بالأروقة. والرواق مكان محدد بين أعمدة معينة. وإليك بيان أقسام الأروقة حتى القرن التاسع عشر: رواق الصعايدة (مصر العليا) - رواق المجاورين (مكة والمدينة) - رواق أبناء السودان ودارفور - رواق الشوام - رواق أبناء جاوة - رواق أبناء الأفغان - رواق المغاربة (شمال إفريقية) - رواق أبناء الصومال - رواق

الأتراك - رواق الأكراد - رواق أبناء الهند - رواق
أبناء بغداد - رواق أبناء النوبة - رواق أبناء الواحات
والفيوم. أما الإيرانيون فلم يكن يقد منهم أحد لتمسكهم
بالمذهب الشيعي، فالأزهر وإن نشأ على مذهب الشيعة
قد تحول إلى مذهب أهل السنة بعد زوال حكم
الفاطميين. حقا هيئات أن نجد في الماضي أو الحاضر
جامعة دينية مخصصة لتدريس المذهب الأم (الكاثوليكية
في المسيحية) تضم مثل هذا الحشد الهائل من الطلبة
الذين يضمهم الأزهر من بلاد مختلفة. أما تأثير الأزهر -
حتى في أيام تخلفه - فعظيم، لأن أئمة الدين في
المجتمعات الإسلامية المختلفة في أنحاء العالم اتخذوه منارة
وعدوه ينبوعاً لأصول الدين قبل تفرق المذاهب
(كالأرثوذكسية في المسيحية).

وهناك مرحلتان رئيسيتان مر بهما الأزهر في محاولة
تجديده ليلائم العصر، الأولى بتأثير من الشيخ محمد عبده
في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، إذ جعل
للأساتذة مراتب ثابتة دائمة، وأضاف بمجهوداته كليات

جديدة. أما المرحلة الثانية فجاءت بعد ثورة سنة ١٩٥٢ بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، فقد أدركت حكومته أن المتخرجين من الأزهر يعودون إلى كل ركن من أركان أفريقية وآسيا غير مؤهلين إلا لتدريس الدين واللغة العربية، ورأى الرئيس جمال عبد الناصر ومستشاروه أن في استطاعة هؤلاء الخريجين أن يكونوا قادة - كل واحد منهم في موطنه - لا باقتصاره على تدريس العلوم الدينية وحدها، بل كذلك بتدريس أساليب العلوم والنظم العملية اللازمة للمجتمعات النامية.. إذن يجب على الأزهر أن يكون معهداً تقدمياً يساير العصر دون أن ينحصر داخل العلوم التقليدية، فبفضل هذا التطور يتحقق الصالح العام للعالم الإسلامي. فكان إن ظهرت حركة تشابه تلك التي انتجت القسيس العامل خارج كنيسه للخدمة العامة عند الكاثوليك. والآن نرى الهندسة وبقية العلوم تدرس لطلبة الأزهر، كما سمح للبنات بالالتحاق به، وهو أمر لم يكن يتصوره أحد حتى في الجيل السابق القريب العهد بالجيل الحاضر.

وفي سنة ١٩٦٤ أعلنت خطوة جديدة جذرية وهي

مشروع إقامة جامعة جديدة للأزهر على مساحة ٥٠٠ فدان في مدينة نصر، وهي ضاحية سريعة النمو لها إدارتها الذاتية وتقع شمال العباسية، كما ستخصص ١٥٠ فداناً أخرى في القبة لإنشاء كلية إسلامية للبنات تابعة للأزهر.

إن تطور الأزهر وهو يضم ٤٠ ألف طالب موزعين على معاهده الابتدائية والثانوية والمخصصة للدراسات العليا إنما هو - من أحد الجوانب - نتيجة تحد من نظام تعليمي آخر في مصر، نظام علماني صرف، فعلى حين ظل سيل من التلاميذ يرتدون القفطان والعمامة، ويدرسون وفقاً لمنهج سلفي لم يتبدل إلا قليلاً منذ القرون الوسطى، تدفق سيل آخر يرتدى الملابس الإفرنجية ويدرس علوم الذرة والاقتصاد السياسي، ولم يكن بين التيارين إلا اتصال قليل أو قل لم يكن بينهما اتصال على الإطلاق.

وترجع هذه الثنائية في نظام التعليم إلى المدارس العسكرية التي أنشأها محمد علي، واتسعت الهوة بين النظامين خلال القرن التاسع عشر، منذ إنشاء دار العلوم سنة ١٨٧٣ إلى إقامة جامعة فؤاد سنة ١٩٢٧، وإمداد

يُجْهَدُ المعاهد العليا بالطلبة يستند إلى نظام تعليمي بين
ابتدائي وثانوي.. هو الآن اجباري وبالمجان. ونسبة
الالتحاق بالجامعة من بين الطلبة الذين أتموا الدراسة
الثانوية هي أكبر من مثيلتها في بريطانيا اليوم، ولكن
هذا لا يعني أن المستوى يرتفع إلى نفس الدرجة أبداً،
ولكن إحصاءات التعليم عن سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤
توضح مدى انتشاره فمثلاً بلغ عدد الطلبة في المدارس
٦٠٨ ألف طالب منهم ٢٦٢ ألفاً من الطالبات، ويبلغ
مجموع عدد الطلبة المتحقين بالدراسات الجامعية دون
الدراسات العليا في جامعتين في القاهرة من أربع جامعات
(جامعة القاهرة التي حل اسمها محل جامعة فؤاد،
وجامعة عين شمس) ٧٢,٩١٣ طالباً منهم ١٦ ألف طالبة
أو أكثر قليلاً، وهذه الأرقام وإن بينت أن النساء لم
يأخذن قسطهن في مجال التعليم كاملاً، إلا أنه يبين في
نفس الوقت سرعة انتشار تعليم البنات. وكل النساء
اللاتي يقمن بدورهن المتزايد الفعال في الحياة المصرية
خريجات هذه الجامعات، وخير مثل منهن هي حكمت أبو
زيد الوزيرة (السابقة) للشئون الاجتماعية التي كان من

أعبائها أن تنشئ ٧٠٠ مركز لتنظيم النسل في جميع أنحاء الجمهورية.

ولأن القاهرة ترى نفسها مركزاً تعليمياً لإفريقية، فإنها - فضلاً عن منح عشرات الألوف من الشبان والشابات الأفريقيين منحاً دراسية في معاهدها - تستغل قوة الإذاعة التعليمية فتذيع من محطة الإذاعة المصرية «برنامج صوت أفريقية» يومياً باللغات الأمهرية والسواحلية، واللنجالا والسيسوتو، والنيانجا، والصومالية، والفولانية، والهوسا، وأخيراً باللغتين الإنجليزية والفرنسية لمن لم تكن لغته إحدى هذه اللغات.

الفصل الرابع عشر

القاهرة.. والفراعنة

يمكن أن يعتبر هذا الفصل القصير سلبياً، فليست القاهرة فرعونية في شيء ولكنها تحوى المتحف المصرى فى ميدان التحرير، ويضم أفخر مجموعة من الآثار المصرية فى العالم. ويمكنك فى مقابل قرشين التجول فى أكثر من مائة غرفة فيه تضم بقايا مدنية ابتدأت منذ عرف الإنسان معيشة المدن. ويمر سيل لا ينقطع من الزوار من كل أنحاء العالم أمام أثار توت عنخ آمون المتين أو يواجه موميات رمسيس الثانى وسيتى الأول (وكانت الموميات فى عهد فاروق محجوزة عن أعين السواح، فقد اعتبر هذا الملك هؤلاء الفراعنة ملوكا سابقين يجب أن

تضفى عليهم جلالة الملوك، أما الجمهورية الديمقراطية فقد سمحت - نظير رسم قدرة ٢٥ قرشاً - بدخول القاعة رقم ٥٢ حيث تعرض الموميات حالياً). ويفخر القاهريون بمتحفهم ويعتقدون أنه السبب الرئيسى لحضور ٤٠٠,٠٠٠ زائر سنوياً للبلاد. ولكن الأساء التى أشرفت على هذا المتحف ليست مصرية فقد أنشأه أوجست مارييت الفرنسى وصمم مبانيه نارسل بورجنون عالم المصريات، والدراسات التى بدأت بأوروبيين أمثال شامبليون ومارييت لم تشمل المصريين بأعداد كبيرة إلا أخيراً..

وإذا كانت القاهرة مدينة إسلامية وليست فرعونية، فإنها فى نفس الوقت مركز باهر للدراسات الفرعونية. وترجع جاذبيتها العظمى فى هذا المجال - حتى للسائح الخالى البال - إلى قربها من الجيزة وسقارة. وهناك عرض بالصوت والضوء عند الأهرام يقام كل ليلة يسترجع ألوف السنين التى سبقت البطالسة. ويستقبل أبو الهول - وقد تجلى بعد إزالة الرمال من حوله - أشعة

الشمس كل صباح على جبينه وهو يحدق بلا مبالاة ناحية المدينة. ويمكنك أن تشاهد - وأنت واقف على جبل المقطم عند الضاحية الجديدة - سلسلة من الأهرامات تمتد جنوباً حتى نهاية البصر. وإذا وصلت إلى محطة القاهرة قادماً من الإسكندرية أو بور سعيد فستشاهد خارجها تمثالاً ضخماً لرمسيس الثاني - الذى اكتشف قريباً في سقارة - واقفاً وحيداً مديداً تخرج من أقدامه نافورات من المياه

ولكن التأثير الواضح للفراعنة على القاهرة هو محاكاة لتصميماتهم ونقوشهم تزين بها قاعات المطاعم أو ترسم على بعض الأقمشة.

ولعلى أكون مخطئاً في ذلك. فهناك تأثير إيجابى فرعونى واضح، ذلك أن الشابات يضعن الكحل حول عيونهن التى هى واسعة أصلاً. كما أنهن - بحيلة فنية - يتوصلن إلى إرسال شعورهن السوداء على نمط شعر نوفرت الجالسة على الدوام بجوار زوجها الأمير رع حتب في الغرفة رقم ٣٢ بالدور الأرضى في المتحف.

فهرس

صفحة

هذا الكتاب	: ٣
مقدمة	: القاهرة الكبرى للدكتور جمال حمدان ١١
الفصل الأول	: القاهرة بنت الصحراء ١٢٣
الفصل الثاني	: القاهرة بنت النيل ١٣٠
الفصل الثالث	: القاهرة أم الألوان العديدة ١٤٠
الفصل الرابع	: القاهرة الطابع البلدى ١٤٥
الفصل الخامس	: القاهرة الطابع الإفرنجى ١٥٧
الفصل السادس	: القاهرة والأرستقراطية ١٦٦
الفصل السابع	: القاهرة الطابع النوبى ١٦٩
الفصل الثامن	: القاهرة منازل الاموات ١٧٢
الفصل التاسع	: القاهرة ظلال من مقدونيا ١٧٦
الفصل العاشر	: القاهرة طابع الأجانب ١٩٣

صفحة

- الفصل الحادى عشر : القاهرة الطابع الإسلامى ٢٠١
- الفصل الثانى عشر : القاهرة والأمسيات ٢٣٥
- الفصل الثالث عشر : العلم والتعليم ٢٥٩
- الفصل الرابع عشر : القاهرة والفراغة ٢٦٧



١٠٥٨

١٩٨٧ / ٢٥٢٢	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٩٩٨-٣	الترقيم الدولى

١ / ٨٤ / ٣١٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

